رواية

وسواس

OBSESSION

أحمد ربيع

ساحر الكتب

كن حذرًا.. فألد أعدائك يتربص بك..

إلى من وصلت إليه هذه المذكرات ..

عليك أن تعرف أن ما بين يديك الآن هو سرد موجز لحكاية السيد / آدم المدهشة التي خطها بنفسه و احتفظ بها رافضاً القيام بنشرها.

أعترف أنني تحصلت عليها خلسة دون أن يدري ، و قمت بتنسيقها و صياغتها بهذا الشكل الروائي .. ليته يسامحني إن وقعت بين يديه يوماً .

و لا شك أيها القارئ أن لديك كامل الحق في تصديقها أو نفيها ، ففي لحظات معينة قد يغلبك اليقين بوقوعها و في لحظات أخري قد تساورك الشكوك ، أنت في ذلك حر تماماً .

لكني سأهمس في أذنك بشيء أخير :

انغمس في هذه الأوراق بكامل وعيك ، لأنك ستكتشف مثلي في النهاية أنها لا تتعلق به وحده ، و إنما هي في

الحقيقة تمسنا جميعاً !

السيدة / إيفا ،،

الفصل الأول

(أعماق مسكونة)

(1)

كان الأوان شتاءً .

في ذلك الوقت الذي يشتاق فيه الناس إلي الصيف ، من غزارة الأمطار و شدة البرودة و طول الليل .

و كنت حينها قد تخطيت الثلاثين عاماً بثلاث سنوات ، و مر علي زواجي سنتان .

أتذكر أنني في نهاية ذلك اليوم الغائم ، عدت إلي منزلي غارقا في الأفكار.

البرق يلمع في السماء و في ذهني تومض رغبتي العارمة في الدفء . بوادر بداية الليل القاتمة تزحف تدريجياً علي المدينة حتي تمام الإظلام و تتراقص

أضواء المصابيح البرتقالية أمام المنازل مرتجفة من تركها وحيدة وسط الصقيع الضارب في كل مكان .

تستقبلني زوجتي (سيلين) عند الباب ، فألمح الوشاح الأخضر الملتف حول رقبتها وابتسامة الحب الحانية في عينيها و خصلات شعرها السوداء التي تركت لها العنان.

بهدوء ، أودع دراجتي في مكانها المعتاد و أرتقي بضع درجات رمادية من الرخام لأصل إلي المنتهى ، حضنها الدافئ المريح .

أقبل شفتيها الدافئتين لأستلهم منهما إحساس العودة إلي الوطن ، فالعالم بالخارج موحش و غريب .

حين ندخل سويا تسبقني إلي المطبخ الذي يطل على أشجار الليمون التي تظهر من خلف الزجاج باهتة. تتصاعد الأبخرة خفيفة الكثافة من أواني الطهي و تتلاشى عند السقف .

ليت لنا ذات القدرة على التلاشي .

فاجأتها :

- وجدت منزلاً أنيقاً يطل على بحيرة .

هتفت بسعادة كالأطفال :

- حقاً ؟! أنت تتلاعب بي .

- يقع المنزل على أطراف المدينة .

- كنت أحلم دوماً أن أسكن بمنزل يطل على بحيرة صافية ، كالتي يقع عليها مطعم والدي .

- حلمك سيمسي واقعاً يا حبيبتي .

تتسع ابتسامتها و هي تضع أطباق الطعام الساخنة على المنضدة ذات الكرسيين وتجلس قبالتي . عصرت نصف ليمونة على الحساء الساخن و ارتشفت منه مستمتعاً .

تراقبني و أنا أتناول طعامي ، تتأملني بامتنان و هي تسند ذقنها الناعم على راحة يدها حتي انتهيت ،

(سيلين) لها جمال هادئ ، بشرة خمرية وعينان عسليتان ، و إذا سألني أحد عن أجمل ما فيها سأخبره أنها ابتسامتها الطيبة .

على مقربة من هنا ، يقع مكان عملي في وسط المدينة ، و هو عبارة عن مكتبة قديمة التأسيس تدعى الفردوس، و هي تعج بالروايات و الكتب المطبوعة و يمتلكها السيد (ألبرت) .. المكتبات جنان أرضية .

لا إخوة لي ، كنت أنا الابن الوحيد ، عمل أبي أستاذاً بالجامعة بقسم الفلسفة ، وكانت أمي عازفة كمان ، لكنهما يعيشان الآن في مدينة بعيدة عني ، أعترف بأنني مقصر في زيارتهما ، رغم أن العام لا يمر إلا و قد قضيت بضعة أيام برفقتهما .

حقيقة ، الحياة هنا واعدة أكثر و تبعث في نفسي الارتياح .

في كل صباح ، أستقل دراجتي إلي المكتبة مطلقاً صفيراً هادئاً بألحان مختلفة أعزفها في عقلي ، كانت

تلك هي تسليتي حتي الوصول .

من المعالم المميزة لمدينتي ، تلك الهضبة المخادعة العملاقة المغطاة بالثلوج ، لماذا وصفتها بالمخادعة؟ لأنها تشعرك دائماً أنها قريبة منك رغم أنك تحتاج إلي قطع مسافة كبيرة حتي تصل إليها ، شأنها شأن أحلامنا !

كنت قد بعت اليوم روايتين لدستويفسكي و مسرحية لشكسبير ، لا شك أنني أسعد بالقراء كثيراً و أساعدهم باقتراح الكتب التي تتماشى مع الذائقة الأدبية لكل منهم .

أعدت لنا (سيلين) أمسية نادرة على ضوء الشموع .

خفوت الإضاءة ، سمح لعينيها أن تتوهجا ، و لابتسامتها أن تشرق ، شمس تشرق ليلاً .

تتراقص الشعلات فوق قمة الشمعات على استحياء ، لكن روحينا تتراقصان بجرأة ، كأن العالم يفرك عينيه كي ينام بينما نرتدي نحن رداء الصحو الناصع .

أخبرتها أنها تزداد سحراً في الليل ، و تبدو لي خلاله كأنها أول وجه أنثوي أطل على الوجود ، و كنت أتصور أنها لا ريب شبيهة لحواء الأم، لأن ملامحها طبيعية و فاتنة وأصيلة .

هكذا كان تظهر حواء دائماً في مخيلتي ، مزيج عبقري من الجاذبية و البساطة .

مع هذا ، فإنني حين دققت جيداً في مقارنتي ، رأيت بينهما ثمة اختلافات واضحة ، فحواء وإن كانت فضولية و متسائلة ، كما استخلصت من قصتها ، فإن (سيلين) ساكنة ولا تميل إلى التساؤلات .

سألتها إن كانت قد رأتني هي الأخرى كآدم الأول في أي وقت ، فضحكت لعدة ثوان وأخبرتني أن لكل امرأة ، آدم الخاص بها .

بعد نهاية الأجواء الشاعرية ، التي لم أكن أرغب في انتهائها ، و على السرير الوثير ، الدافئ ،كنت أفكر في

تساؤل متكرر يهاجمني بشدة ، كأنه يذكرني بنفسه كل فترة:

هل سأرزق بأطفال ؟!

لدي فكرة غير مألوفة هنا ، و لقد تعودت على الكتمان ، فأنا لا أبوح بما يعتمل في نفسي حقاً، حتي لا يظن الناس أني مجنون ، لكني سأفصح ..

هذا العالم ؟!

لا أراه يستحق أن يستمر ، لا يعجبني العيش في حياة كتلك التي نحياها ، و الحل من وجهة نظري للقضاء على الأمر برمته هو عدم إنجاب أطفال و من ثم الانقراض والفناء التام ، بهذا فقط يتوقف كل شيء و تندثر المعاناة، بشكل أجلى، لماذا ننجب أطفالاً و نلقي بهم في تلك الحياة المؤلمة و المنتهية حتماً بعذابات الموت .

هل نمتلك الحق في أن نعذبهم بهذه الطريقة القاسية ، فقط لأنها معتادة بين البشر؟!

دار السؤال بكافة أرجائي لبرهة حتي أوقفت دورانه و طردته من رأسي ، لا إجابة لك أيها التساؤل الآن. و حقيقة لم أكن أعرف إن كنت سأسعد إن أنجبت طفلاً أم لا ، فالبون شاسع بين ما نرى وجوب حدوثه و بين ما نقوم به فعلاً .

تابعت رتابة أنفاس زوجتي بجواري حتي دفعتني إلى النوم ببطء ، غير أن هطول الحبيبات الثلجية الذي بدأ منذ قليل ، ظل يتسارع بالخارج طوال الليل .

***

في الصباح الباكر الذي يكون فيه كل شيء بكراً ، صففت شعري أمام المرآة و تأملت عيني لبرهة قبل أن أرتدي جاكت رمادي و ربطة عنق بذات اللون فوق قميص أبيض. ودعت زوجتي بعدما تناولت بعضاً من فتات الخبز الممزوج باللبن الدافئ و ركبت دراجتي التي انسابت على الطريق الأسفلتي الأزرق الذي يقطع الأراضي الخضراء والمزارع الممتدة على اليمين و اليسار كنهر صغير ، أبهجتني مزارع البنفسج العطري

كعادتها ، في الوقت الذي كانت الشمس تطل فيه على استحياء، و ثمة نسيم منعش يرافقني .

تتردد في عقلي معزوفة لـ (لويس أرمسترونغ) و أنا أسرع لأتمكن من اللحاق بموعد فتح المكتبة اليومي في الثامنة صباحاً .

ظللت أهز رأسي طرباً على النغمات العالقة في ذهني ، فأنا لا أستطيع أن أنفض رتماً موسيقياً عني مادام قد أعجبني إلا إن حل مكانه لحن آخر، مدهش .

أعطاني ظهور البنايات من حولي إشارة على قرب الوصول ، وحين وصلت إلى المكتبة وضعت دراجتي جانباً و فتحت الباب المعدني لتستقبلني رائحة الكتب المحببة :

- صباح الخير يا أصدقائي ، كيف كانت ليلتكم .. (ألقيت تحيتي على الكتب)

جلست على مقعدي المعتاد ، شغلت الراديو ، أدرت مؤشره إلى قناتي المفضلة وفتحت رواية "غيوم فوق

بحر الشمال" التي كنت أقرأها بالأمس على العلامة التي توقفت عندها .

كنت أحب الروايات التي يكون أبطالها مجهولين ، مهمشين ، لا ينتظر العالم منهم شيئاً ، و من ثم يتم الزج بهم في قلب الأحداث دفعة واحدة ليتفاجأ الجميع بمرور الوقت ، إن المجهولين هم المؤثرون في النهاية .

وصل بعد برهة ، السيد (ألبرت) صاحب المكتبة، و هو رجل متوسط القوام ، يرتدي دوماً قبعة رمادية، و يتميز وجهه بذلك الشارب الأبيض الذي يحرص على تهذيبه دائماً ، و ذلك المنظار الطبي الذي يتحايل به على القصور الذي أصاب قوة بصره ، بالإضافة لشعره الأشيب ، بحيث تشعر حين تراه أنه أحد تجار المشغولات الذهبية المحنكين :

- صباح الخير يا آدم .

- صباح الخير يا عزيزي ألبرت .. لماذا أرهقت نفسك بالمجيء باكراً .

- و هل أنام سوي لساعات قليلة .. في سني هذا يا بني لا تستطيع أن تنام بعمق .. كنت قريباً من هنا ففكرت في إلقاء التحية ، كيف أحوالك و أحوال زوجتك ؟

- حالنا جيد .. سيلين ترسل لك التحيات دائماً و تطلب أن تمر علينا لنتناول وجبة الغداء سوياً .

أخرج بخاخة مرضى الربو و أطلق بخة منها داخل فمه :

- أخبرها أنني سألبي دعوتها في حالة واحدة ، إن كانت تجيد صنع الحساء الذي أحبه.

- لا تقلق .. زوجتي جيدة في أعمال الطبخ .. و ستبهرك بقدراتها بلا شك .

- لا تنس أن ترسل لها تحياتي الحارة إلى أن نلتقي .

خرج (ألبرت) بحركة بطيئة أنتجتها شيخوخته ، و غمر الأجواء بعد ذلك عبير أنثوي ، حول المكان إلى بستان من اللافندر ، تطلعت بفضول إلى القادمة فوجدتها فتاة فاتنة في بداية العشرينات من عمرها ، لها بشرة ناصعة البياض ،خضراء العيون ، ذات شعر أصفر قصير ينسدل من تحت قبعة كحلية تعلو رأسها ، شفتاها محلاة بدرجة مميزة من أحمر الشفاه، ترتدي بلوزة سماوية اللون و جونلة باللون الكحلي وكان صوتها ناعماً سلساً :

- صباح الخير .. أود أن أسألك عن كتاب في تاريخ الفنون .

- أي عنوان؟ .

- أريد مرجعاً يتناول تاريخ الفن في أوروبا لأنه يتصل بدراستي ، فأنا جامعية و في السنة الأخيرة .

فكرت قليلاً ، ثم رشحت لها كتاباً و أحضرته من فوق أحد الرفوف ، فأعجبها ، كان لها جمالٌ خاطفٌ ، آسرٌ ،

لا فكاك من إدمان التحديق فيه .

دونت اسم الكتاب في أجندتي و سألتها :

- ما اسمك؟

كان صوتها خفيضاً ناعماً و هي تهمس ببطء :

- أوليفيا .

ابتسمت و أنا أدون الاسم ، و أعجبتني عيناها النابهتان وابتسامتها المشرقة .

- لك خصم خاص بما أنك طالبة يا أوليفيا .. هذه قواعد المكتبة .. و إن كان الأمر بيدي لمنحته لك بشكل مجاني .. كشكر لك على منحي هذه الابتسامة في بداية اليوم .

ابتسمت وهي تأخذ الكتاب وتغادر .. و قلت في نفسي لو رأت (سيلين) ما حدث لكانت قد قتلتني ، من

الجيد أن الزوجات تلتزم المنازل و إلا لأُصيب نصف الرجال بعاهات مستديمة ليس منها شفاء !

***

صباح اليوم التالي .

- حبيبي، استيقظ و كفي كسلاً ، ستتأخر عن موعد العمل .

فتحت عيني ببطء :

- حصلت اليوم على إجازة .

سألتني متعجبة :

- إجازة ؟ لكنه الثلاثاء ، دائماً ما تكون إجازتك في نهاية الأسبوع .

أجبتها بابتسامة بسيطة :

- هذا لأننا سنخرج لرؤية المنزل الجديد .. ما رأيك في هذه المفاجأة .

- هل تمزح ؟

أومأت لها بالنفي مبتسماً فتابعت سعيدة :

- يا لها من أخبار سارة .. تحرك إذن لأنني لا أطيق الانتظار .

مرت بأصابعها الناعمة على شعرها الحريري الذي يبدو براقاً تحت أشعة الشمس ، لمعت عيناها البنيتان حين أنعشت وردتها الحمراء القابعة عند النافذة ببضع قطرات من المياه فغمرتها سعادة كتلك التي تبديها حين تتناول مكعبات الشيكولاتة التي تعشقها .

نزلنا الدرج بخفة إلى الأسفل وساعدتها في وضع الأطباق على المائدة المستطيلة وأنا أسألها :

- كيف هي أحوال مطعم والدك ؟

- كل شيء على ما يرام ، أحاول أن أتفقده كل حين .

- يجب ألّا نبخل عليه بهذه الزيارات لأنها من أهم أسباب سعادته .

أومأت موافقة لكلماتي .

بعد الإفطار ، ارتدت فستانها المليء بالورود وربطت حزاماً من القماش بنفس اللون حول خصرها ، أكدت بأحمر شفاه تقليدي على لون شفتيها الوردي ، خرجت من باب المنزل تتقافز بابتهاج .. كم أنت طفولية يا (سيلين) .

مشينا في طريقنا وسط الأشجار التي تملأ الأرجاء ، فبدونا و كأننا نسير في مملكة خضراء ، وحين وصلنا إلى البحيرة الزرقاء التي يطل عليها المطعم، كانت أشعة الشمس قد تلألأت عليها . جذبت باب المطعم الزجاجي للخارج ودخلت ،ألقيت تحية الصباح على السيد (أندرو) صاحب المطعم و والد (سيلين)

بابتسامة واسعة ، بادلني التحية و أخبرني أن لديه عمل كبير اليوم :

- لدينا زائر مهم في المساء ، علينا أن نزين الحوائط بفروع النور الملونة و نتأكد من جودة الطعام .

كان منهمكاً في إعداد بعض الأطباق للزبائن التي بدأت تتوافد لتناول وجبة الإفطار ، طلب من مساعده توصيل أطباقا من الجبنة الفرنسية و بعضاً من الخبز إلى أحد الزبائن ، من الواضح أن هذا المطعم من أكثر الأماكن المحبوبة في المدينة .

و لا شك أن هذا الرجل يضرب مثالاً في حب العمل ، فلقد باع منزله منذ أن تزوجتني (سيلين) و أصر أن يقيم في غرفه ملحقة بالمطعم قد جهزها بنفسه ، حتي يستطيع أن يباشر أعماله طوال الوقت .

لقد قرر أن يكون هذا المكان هو عالمه .

قمنا بتحيته ثم توجهنا بسيارة إلى (جون) صاحب المنزل الذي نود شراءه .

حين وصلنا كان الرجل في انتظارنا ، لم تخف (سيلين) انبهارها بالبحيرة الساحرة التي يطل عليها المنزل ، أخبرتها هامساً أن ابتسامتها يجب أن تختفي ، حتي لا يتسبب تعلقها الواضح في زيادة إضافية لسعره الرائع ، جمعتنا جلسة اتفاق ، توافقنا فيها على سعر المنزل و موعد الدفع بعد شد و جذب تجاري . في طريق العودة كانت (سيلين) متعلقة بذراعي بسعادة كأنها فتاة صغيرة ليلة العيد .

لم تمر سوى عدة أيام ، كنا بعدها في المنزل الجديد ، نبدأ حياة جديدة .

(2)

في أول الأيام هنا ، فتحت نافذة غرفة النوم المطلة على البحيرة ، لأرى الضوء القمري منعكساً عليها و أشرد بذهني ، غمرني حينها اشتياق إلى منزلي القديم ، و أخذني حنين متوقع إلى الماضي ، فتعلقي بالأماكن لا يغادرني قط .

مر على ذهني أيضاً ما سمعته عن هذا المنزل بعد شراءه ، فقد أخبرني أحدهم بأن هناك شائعات متناثرة تتحدث عن كون هذا المنزل مسكون !

هل هذا معقول ؟! لا ريب أنها أقاويل تخيلية لا تستند على حقائق ملموسة ، لأن العامة يستمتعون بتداول الحكايات الغريبة ، و يفضلون تصديقها لإضفاء بعضاً من الإثارة على عالمهم الرتيب .

وضعت رأسي في تلك الليلة على مخدتي كأي رجل في المدينة يخلد إلى النوم ، و يستعد للسفر بروحه إلى بلاد الأحلام البعيدة ، إلا أن رحلتي إلى هناك لم

تبدأ ، و إنما ألغيت و أعيدت إلي تذاكرها ، ذلك لأنني لم أنم أصلاً .

لماذا لم أنم ؟ حسناً ، بمجرد أن أغمضت عيني ، حتي سمعت ذلك الصوت الخافت يتردد في غرفتي كأنه يهمس في أذني ، صوت مبحوح كصوت الأفاعي ينادي علي بتضرع :

- آدم .. آداااام .. آداام ..

اللعنة ، هل أعاني من هلوسات سمعية ، تكرر الصوت ثم اختفى ، ظللت مترقباً عودته ، لكن صمت ثقيل غلف المنزل و هبط عليه ، أنا لا أحلم ، أنا في كامل وعيي ، أم أنه كابوس لا أدرك وجودي فيه ؟ حاولت النوم ، لكن عقلي كان يعمل بكامل طاقته ، هل أنا خائف ؟

عاتبت نفسي واستجمعت شجاعتي لكن عقلي لم ينطل عليه ما أفعله ، كان يدرك أن الخوف قد تولد في أعماقي و ترعرع .

جسدي من أنقذني ، حين قرر ألا يقف متفرجاً و أسقطني في النوم دفعة واحدة بتأثير التعب و الإرهاق لينقذني من دوامة تفكير لا تنتهي .

***

في الصباح ، دفنت رأسي في الرواية التي أقرأُها ، و نفضت عني خيالات الليلة الماضية المتقلبة ، وتراءى لي وجه (سيلين) المبتهج و هي ترتب أغراضنا في الغرف الواسعة ، أخرجت زجاجة عصير البرتقال الباردة و شربت منها حتي تحسن مزاجي .

أصبحت النواحي تغرق أكثر في الظلام ، فمبيعات الكتب ليست مرضية ، والأشخاص الذين يأتون كل حين للبحث عن كتب معينة ، هم إضاءات فردية .

أغلقت المكتبة في نهاية النهار ، فلا أحد يخرج من منزله كثيراً أثناء الليل الشتوي .

في طريق عودتي بالدراجة ، لمحت شخصاً على جانب الطريق لم أستطع تمييزه ، يبدو أنه عالق في هذه

المنطقة المهجورة ، أشار لي قبل أن أصل ، فتوقفت بدراجتي بالقرب منه ، و تعرفت على تلك الملامح الفاتنة على الفور:

- أوليفيا ! ماذا تفعلين هنا ؟

- لقد علقت هنا لأنني لم أجد أي سيارة أجرة .

- أستطيع توصيلك إن كنت تريدين .

- لا أريد أن أسبب لك أي إزعاج .

- على العكس .. لا يمكنني أن أتركك وحدك .

- حسناً .. هذا لطف كبير منك .

ركبت خلفي على الدراجة و طوقتني بذراعيها ، و أحياناً كانت تحرك يدها اليمني كي تثبت قبعتها على رأسها كي لا تقع بفعل الرياح .

شعرت بعطرها الأنثوي يملأ رئتي و بجسدها اللين يدفئ ظهري ، فاستحوذت على قلبي بهجة غير

متوقعة في أمسية كانت تخلو من الروعة و الاندهاش .

بعد البهجة المشعة ، تملكني شعور عجيب لم أفهمه ، شعور بأنني و (أوليفيا) ننتمي لبعضنا البعض ! احتضنتني أكثر فلم أقاومها، و لم أمنعها، كان يمكن أن أوقفها ولكني لم أفعل ، ذلك لأن النشوة التي تملكتني سرت في كل جسدي كالخدر .

أمتعني دفء الاحتضان، وهبني شعوراً بأنها قصاصة مفقودة كانت غائبة عني ثم عادت لتكمل الصورة و تجعلها واضحة .

أِشارت إلى أحد المنازل وأخبرتني أنها تسكن هنا، كانت فروع الأشجار تهتز بشدة، وكانت الإضاءة خافتة، ودعتني باسمة وراقبتها حتي اختفت، بعدها واصلت طريقي إلى المنزل، ليفاجئني ضميري بعتاب عارم حول ما حدث !

كيف استطعت أن تفعلها، أن تستسلم لنزواتك و تخن زوجتك و لو لدقائق معدودات ؟!

حقاً ؟! أين كنت أيها الضمير منذ لحظات ؟! لماذا لم يعلُ صوتك سوى الآن ! و لماذا لا تستيقظ دائماً إلا بعد فوات الأوان !

حاولت إخماد الصراعات التي بدأت تطفو بداخلي، لكنها كانت قوية و ساطعة، ظهرت على ملامحي فور وصولي على هيئة اضطراب لاحظته (سيلين) و لم تسأل عنه .

على مخدتي، كنت أسترجع لحظاتي معها و أبتسم، و بجواري زوجتي تتشكك في حالتي بعين نسائية خبيرة لا تخطئ رصد التغيرات التي تبدو على الرجال، لكن الابتسامات وقتية، من قال أنها تدوم ؟ تبخرت بسمتي حين انبعث ذات الصوت العميق مجدداً من العدم و من اتجاه غير محدد لم أتبينه، لتصيبني قشعريرة لا إرادية، زادت و انتشرت في سائر جسدي حين بدا الصوت الغامض أكثر عمقاً :

- آاااادم .. آاادم .. أنتظرك هنا .. لماذا لا تأتي ؟

ارتجفت حينها من فرط الرعب الذي غزا روحي .

***

(3)

لم يكن صوتاً عادياً.

كانت نبرة متضرعة و بها شيء آمر في الوقت ذاته، نبرة بها شيء سحري غير مفهوم يجذبني إليها، كان الصوت أكثر ارتفاعا عن الليلة الماضية بشكل ملحوظ، من أين يأتي هذا الصوت ؟! يبدو لي أنه قريب، هل هو خارج غرفتي مباشرة ؟

كانت (سيلين) غائبة في نوم عميق، حين توقف الصوت .. نهضت حذراً، تحركت ببطء تجاه الباب و ألصقت أذني، مرت لحظات خالية من أي شيء، عاد بعدها النداء مجدداً عميقاً ليسقط قلبي بين قدمي المرتعدتين و أعود إلى سريري الآمن سريعاً و أغطي وجهي و سائر جسدي بالأغطية الثقيلة .

تعجبت من رد فعلي، لأن حجب الرؤية ليس له علاقة بتحقق الحماية، و لأن إغماض الأعين لا يؤجل وقوع الخطر .

كانت ليلة طويلة و عصية على الانتهاء، توقف الصوت حين اقترب قلبي من التوقف، حاولت النوم مراراً لكن جسدي لن ينام هذه المرة و عقلي مستيقظ بهذا القدر .

جثم الخوف على صدري والأرق على عقلي و الإرهاق على جسدي، فسألت نفسي : أهو عقاب الرب على افتتاني بـ (أوليفيا) ؟!

***

جلست على طاولة الإفطار مرهقاً و فركت عيني قبل أن أشرع في تناول الطعام، سألتني زوجتي :

- ماذا بك ؟

- ماذا !

- تبدو مرهقاً .

- لم أنم جيداً، هناك أشياء غريبة تحدث معي كل ليلة .

- أية أشياء ؟!

- أسمع أصواتا .

- لم أسمع أي شيء، مؤكد أنها أحلام .

- الأحلام لا تكون بهذا الوضوح .

- و لماذا لم توقظني كي أكون بجانبك .

- لم أرد أن أوقظك حتي لا ترتعبين .

- حبيبي .. حقيقة أعتقد أنها تخيلات، اصرف تركيزك عنها و حينها ستختفي .. صدقني !

أنهيت إفطاري سريعاً، و تجولت في غرف المنزل المختلفة، بالدورين الأرضي و العلوي و تفحصتها بعيني، كانت كل الغرف طبيعية و لا شيء يدعو إلى الريبة .. سألتني (سيلين) عن سبب تجولي، فأخبرتها أنني أفكر في عمل تغييرات في تصميمات الغرف في المستقبل .

ركبت دراجتي غير متحمس، حين ابتعدت عن المنزل، توقفت لأتأمله من بعيد، بدا لي صامتاً و منغلقاً على نفسه، حتي تلك النوافذ الزجاجية بالأعلى لا تكشف شيئاً مما خلفها، كان منزلاً هادئاً لا يبوح بأسراره لأحد.

على الطريق الأزرق، لمحت مجموعة من الأطفال في طريقهم إلى المدرسة سيراً، ما إن رأوني حتي ركضوا خلف دراجتي ببهجة، توقفت على جانب الطريق و حملت أحدهم ضاحكاً في اتجاه السماء إلى أن أعدته إلى الأرض، طلبوا مني اللهو قليلاً بالدراجة، ساعدتهم على الركوب واحداً تلو الآخر، و بعد وقت ممتع قضيته معهم، استكملت رحلتي إلى المكتبة و أنا في قمة سعادتي .

هل سأشهد اليوم الذي أنجب فيه طفلاً مثلهم، له نفس ملامحي ؟

هل سأضيف كرسياً جديداً لمنضدة تناول الطعام في المطبخ ؟

على كل حال، اتخذت ذلك الطريق الذي يمر من أمام الحانة، فلمحت السيد (ديزموند) يخرج مترنحاً و هو يضيق حدقتاه غير المتعودتين على ضوء الشمس، كمصاص دماء أجبرته الظروف على الظهور صباحاً، ليته كان كذلك فعلاً .. لكان سيحترق و كنت سأرتاح من تطفله المستمر :

- آدم !

قالها و هو يشير لي فتوقفت بجواره، أسند يده على كتفي حتي تمكن المخيخ القابع في جمجمته من منحه بعضاً من التوازن و استطرد :

- كيف حالك، لا أخفيك سراً كانت سهرة ماجنة، أخبرتك من قبل أنه سيفوتك الكثير إن لم تنضم لي في تلك الليالي الملتهبة .

حككت أنفي بضجر وأنا أنظر إلى عينيه الضيقتين :

- ديزموند، ليس هذا هو الوقت المناسب لمثل هذه النقاشات، أنا في طريقي للعمل، أتمنى لك صباحاً

سعيداً كأمسياتك .

ركبت الدراجة و أكملت طريقي، نظرت خلفي فوجدته يستند إلى الحائط ثم ينهار أرضاً، اللعنة، لماذا يتعلق هؤلاء الرجال بأمكنة تسلبهم السيطرة على أنفسهم .

فكرت .. ربما في الخمر فلسفة ما، ربما يكون متداولا لأنه عازل عن الواقع، سالب للذاكرة و الهوية، يلقي السكارى في غياهب عدم الإدراك، فيخفف من حدة البؤس الملازم للوعي بالحياة، و يهبهم نشوة غياب الحقائق المريرة عن العقل ، الفهم لعنة، و التذكر لعنة، والخمر لعنة مضادة لتلك اللعنات .

عند منتصف النهار، مر السيد (ألبرت) على المكتبة فوجدني شارداً، حتي أنني لم أنتبه إلى وجوده :

- جسدك هنا و عقلك سارح .

انتبهت حين ألقي عبارته و قابلته بترحاب صادق :

- لقد جئت في الوقت المناسب .. أعدت سيلين الحساء الذي تحبه و تنتظرنا اليوم على الغداء .

- حقاً ؟ هذا هو أول خبر جيد أسمعه منذ أيام .. أعطني عنوان منزلكما الجديد وسأكون هناك في الموعد .

كتبت له العنوان بكل ترحاب :

- على السعة .

انقضى الوقت سريعاً، و كان الجو بارداً حين عدت إلى المنزل، لكني كنت أثق أن الحساء الساخن الذي تعده زوجتي سيدفئني تماماً .

على طاولة الطعام كان السيد (ألبرت) بعد انضمامه لنا مرتبكاً و كانت تعبيرات وجهه غير مفهومة، خاصة أنه كان يدور بعينيه في أرجاء المنزل بكل تركيز .

مدح الرجل كثيراً جودة الطعام و وصف الطعم بالممتاز، حتي أنه أخبرنا أن من يستطيع طهو الحساء

بهذه الجودة، يستطيع إعداد أي صنف .

أعدت (سيلين) لنا كوبين من الشاي و هي ممتنة من ثناء (ألبرت) المتواصل عليها، كان يحبها و يقدرها .. خرجنا للتمشية حول المنزل و توقفنا أمام البحيرة الفاتنة :

- سيعود ابن أخي قريباً من السفر و أريدك أن تتعرف عليه، شاب ذكي و لديه أفكار طموحة .

- هذا من دواعي سروري .

بعدها دقق النظر في عيني مباشرة و فاجأني بكلام لم أتوقعه :

- أريد أن أسألك سؤالاً يا آدم .. هل تحريت عن هذا المنزل قبل أن تشتريه ؟

تسرب إلى عقلي بعض من القلق و أنا أجيب :

- أي نوع من التحري تقصد، كنت أبحث عن منزل يطل على بحيرة و قد دلني أحد الوسطاء عليه بعد إلحاحي في الطلب .

- هذا المنزل به شيء غريب .

- ماذا تعني ؟!

- لقد سمعت أن صاحب هذا المنزل اشتراه منذ وقت قريب، و قد وصلته بعدها أقاويل بأن المنزل مسكون، لذا فقد ارتعب الرجل و عرضه للبيع في أسرع وقت .

- لا أخفيك سراً .. لقد سمعت كلاماً كهذا و لم أعره أي اهتمام .

- كان يجب أن تهتم !

أقبلت (سيلين) علينا و في يديها طبق من الفواكه، فأدرنا دفة الحوار على الفور حتي لا تسمع شيئاً من حوارنا الصادم، لا يجب أن تعرف النساء كل شيء لأن مشاعرهن فياضة و ردود أفعالهن سريعة ،إن كانت (

سيلين) قد استهانت بكلامي في المرة الأولي، فلا شك أن كلام السيد (ألبرت) المؤكد لما قلت، لن يمر عليها مرور الكرام، و سيخرج كل شيء عن السيطرة أكثر مما هو عليه، سأبحث عن منزل آخر، ثم سأقنعها بالمغادرة. مشكلتي أن ذلك سيستغرق وقتاً، لذا فلا بد أن أستعد من الآن لليالي السوداء القادمة، تلك الليالي التي قد تنطلق فيها كل اللعنات .. !

(4)

هذه المرة ترقبت ظهور الصوت و انتظرت، رغم أنها بدت ليلة هادئة في عالم هاديء .

طال انتظاري، لكن ضوضاء اخترقت سمعي فجأة و جعلتني أنتفض من مكاني . ميزت صوت أقدام كثيرة تركض ناحية غرفتي، أقدام تحمل أجساد ثقيلًة، يبدو هذا واضحاً من أنين السلم الخشبي الواصل بين الدور الأرضي و الدور العلوي الذي أنام فيه .

ابتلعت ريقي بصعوبة و صوت الجلبة يقترب أكثر حتي وصل إلى باب غرفتي التي تم اقتحامها بكل عنف، لتتسع عيناي من الذهول و أنا أري ثلاثة مخلوقات في قمة البشاعة شاخصين أمامي على الأرضية المحدودة، كان الثلاثة على هيئات مغايرة، نسخ مشوهة من أجناس مختلفة، أحدهم كان لديه أقدام إنسان و رأس ثور ذات قرون كبيرة و أعين حمراء بلون الدم، و الثاني أخضر اللون، له عينان فارغتان من مقلتيهما، فقط تجويفين واسعين

سحيقين، أما الثالث فكان له أنياب بارزة يسيل منها اللعاب و فراء حيوان بري، هذا ما استطعت ملاحظته رغم خوفي و ارتعابي ، حتي (سيلين) هبت من نومها مفزوعة و التصقت بي و هي تصرخ من المشهد الشنيع كأن أحدهم قد دفعها من على حافة هاوية إلى الأعماق السحيقة المظلمة .

تراجعت إلى الخلف لا إرادياً، و كأن النصف متر الذي ابتعدته هو ما سينقذني، شعرت بجفاف ريقي، و بوجع في معدتي من فرط التوتر، التصقت زوجتي بي والثلاثة مسوخ يحدقون في عيني مباشرة و هم يقتربون منا أكثر و أكثر و يزمجرون، تتابعت أنفاسي و اشتدت سرعة ضربات قلبي و ...

استيقظت من كابوسي الرهيب !

اعتدلت (سيلين) من نومها الهادئ، و ربتت على كتفي و أعطتني كوباً من الماء كي أهدأ و أدرك أنني كنت أحلم .

- حبيبي .. تبدو متعرقاً بشدة .. اهدأ .

- كابوس لعين .

- هذه أول مرة منذ فترة طويلة تنتابك الكوابيس .. اطمئن، أنا بجوارك .

هدأت أنفاسي، و مسحت عرقي عن جبيني، جلست لدقائق على حافة السرير، ثم نهضت و تبعتني (سيلين)، فتحت النافذة و تركت تيار الهواء البارد يغمرني و تأملت البحيرة المنثور على صفحتها فتات من القمر .

- ستصاب هكذا بالإنفلونزا .

- خير من أن أصاب بالجنون .

- عم كان يدور الكابوس .

- لا أريد أن أتذكر .

رميت بالغطاء على جسدي، فشعرت بحرارة الدفء بعد ارتعادة البرودة، الغريب هو أن الليلة كانت عادية و لم أسمع خلالها أي نداءات أو أصوات غير طبيعية .

أغمضت جفوني و استسلمت لدوامات نوم هادئ حتي انسياب شعاع الشمس البرتقالي عند الشروق .

***

سعلت بشدة مرتين فسحبت منديلاً من علبة المناديل الورقية وضممته إلى تلال أخري من المناديل المستعملة، أعدت ترتيب بعض الكتب على أرفف المكتبة وأدرجتها في تصنيفاتها الصحيحة، لن أسمح بوجود الكتب الساخرة على رف الخيال العلمي .

كنت أقف مع شابين يبحثان عن كتب معينة، حين ظهرت هي على باب المكتبة، (أوليفيا) .. عادت بحضورها الطاغي، و أنوثتها الهادئة، لعل بساطة ملامحها هو الشيء الساحر فيها .. سيطرت على مشاعري و بدوت غير مبالياً وأنا أقول :

- أوليفيا .. أهلا بعودتك .. كيف أستطيع أن أساعدك .

أعطتني بعضاً من صمتها قبل أن ترد بهدوء :

- الحقيقة أنني لم أمر هنا من أجل شراء الكتب، بل من أجلك أنت .

- أنا ؟!

- نعم، وددت أن أشكرك على التوصيلة .

- لا عليك، أي شخص غيري كان سيقوم بتوصيلك .

كانت ابتسامتها ذات مغزى و هي تحدق في عيني :

- لم أكن لأقبل، لو كان عرض التوصيل من غيرك .

صمتت قليلاً، فاضطربت و هي تواصل مستدركة :

- لا أثق في الغرباء عادة .. لكني وثقت فيك .

- و ما السر في هذه الثقة ؟

- لأنك رجل هادئ و مثقف، شخص لطيف مثلك جدير بالائتمان .

- أشكرك على هذه الثقة، أسعدني كلامك كثيراً .

رفعت يدها لتودعني و انسحبت بهدوء إلى الخارج، و تركتني غارقا في تخيلات مُسكرة من فرط استمتاعي بها، من الجيد أن أمانينا و تصوراتنا تبقى حبيسة عقولنا، ماذا لو كانت تخيلاتنا مرئية للجميع .. !

بعدما انقشعت تلك الأفكار و حلت محلها همومي التي لا تهدأ، تساءلت : ما الذي سيحدث الليلة في المنزل، و لماذا لا تسمع (سيلين) ذات الأصوات كما أسمعها أنا، لماذا لا يحدث هذا إلا معي أنا فقط ؟!

***

توقف ذلك الفونوغراف إثر ضغطة من سبابة السيد (ألبرت)، لتحل بدلاً من موسيقاه صوت زقزقة العصافير القريبة من النافذة مختلط به صوت السيدة (ماجي) و هي تسأله عن الزيارة إلى منزل (آدم) :

- عزيزي .. لماذا تبدو متحيراً منذ عودتك ؟

- أفكر في ذلك المنزل الذي انتقل إليه آدم و زوجته .. لو صح ما سمعته عنه، فهذا يعني أن الأولاد في مشكلة .

- ألبرت .. هل أنت جاد فعلاً ؟ .. أمازلت تصدق هذه الترهات بعد كل هذا العمر الطويل .

- ليست ترهات .. لسنا الوحيدون على هذه الأرض، هناك كيانات أخرى تعيش معنا، و القصور في الرؤية لا ينفي الوجود، كم سمعت من حكايات عجيبة لم يكن يتخيلها أحد .

- ها أنت قد اعترفت بنفسك .. سمعت حكايات و لم ترها بعينيك ، هل حدث معك شيء كهذا بشكل شخصي ؟

- لم يحدث، حتي الآن .

- لأنها أوهام و مبالغات .. رواج الأكاذيب يا عزيزي لا يجعلها حقيقة .

- لكنها لا تنبت من العدم، بداخل كل كذبة قبساً من حقيقة .

- و كيف تستطيع استخلاص تلك القبسات من بين بهتان الكذب، كيف يمكنك التفرقة ؟

لم يجد (ألبرت) شيئاً يرد به على منطق زوجته الصلب، لكنه و إن قرر أن يتوقف عن التجادل معها لأنها لن تقتنع برأيه في النهاية، ظل في قرارة نفسه مؤمناً بأننا محاطون من كل اتجاه بعالم مجهول يتربص بنا طوال الوقت، عالم قد يكون (آدم) في طريقة للولوج فيه دون أن يدري .

***

هذه الليلة اتخذت قراري، سأخرج من غرفتي و أبحث عن مصدر الصوت، سأضع حداً لما يحدث، هكذا فكرت .

انتظرت و انتظرت بعد أن نامت زوجتي، و لم يخيب الصوت المجهول تطلعي، بدأت النداءات خافتة ثم ارتفعت بالتدريج :

- آاااادم .. لماذا لا تأتي؟ .

خرجت من غرفتي و أنصتُّ جيداً للصوت و حاولت تحديد مصدره بدقة و اندهشت حين أيقنت أنه يأتي من الأسفل ، من مكان بالدور الأرضي، فكرت في استجماع شجاعتي و التجاوب مع النداء كما كنت أنتوي، لكن دمائي قد تجمدت في عروقي وتسمرت في مكاني حين شعرت بتلك اليد تمسك بكتفي من الخلف .

التفتُّ بسرعة مضطرباً .

طالعني وجه (سيلين) المندهش والمتسائل :

- آدم .. ماذا تفعل هنا ؟

- لا شيء .. ما الذي أيقظك .

- عزيزي .. لقد فتحت عيني و لم أجدك بجواري، فلما رأيتك أمام باب الغرفة ناديتك مرتين فلم تجب، حتي أنني قلقت عليك و اقتربت لأفحصك، لماذا لم تكن ترد؟.

نادتني مرتين ! كيف لم أسمعها ؟!

- هيا لننام .

تأملتني و هي حيري حتي عدنا إلى الداخل وأوصدت باب الغرفة جيداً، حاولت النوم مستأنساً بوجودها ، لكني لم أنجح إلا بعد محاولات متعددة، طويلة .

(5)

في اليوم التالي و قبل أن أتحرك بدراجتي لمحته لأول مرة، جاري السيد (توماس)، كان رجل خمسيني، له جسد رياضي، تظهر على استحياء بعض الشعيرات السوداء على الشعر الأبيض في رأسه و ذقنه، يرتدي قميصاً باهتاً و بنطلوناً أزرق من الجينز ، كان يمتلك وجهاً من تلك الأوجه التي لا يمكنك الوثوق بها، قمت بتحيته فرد التحية بهدوء مستفز، و ارتسمت على وجهه ابتسامة غامضة حين أدار عينيه ليتأمل منزلي، راقبته حين تكلم مع زوجته السيدة (إيزابيلا) التي أخبرتني زوجتي عنها ثم دخل بعدها إلى منزله متباطئاً و أغلق الباب .

كانت (إيزابيلا) في الأربعينات من عمرها، ممشوقة القوام ، جميلة الملامح، زاد من بياض بشرتها تلك البلوزة السوداء التي ترتديها، كان لها شعر فاحم و ترتدي قرطاً كلاسيكياً و تسكن في عينها نظرة حزن غير مفهومة .

فيم كان يفكر الرجل ؟! قدح ذهني ذلك التساؤل و أنا أراقبهما متعجباً .

كم أنا فضولي و متوجس .

حين انتهى النهار و هبط الليل على المدينة، ترقبت ظهور الصوت حتي رحت في النوم، على دقات الساعة الثالثة صباحاً فتحت عيني و لا أعرف السبب .

و قبل أن أطرح مزيداً من الأسئلة باغتني النداء :

- آدم .. أنا أنتظرك .. حان الوقت .

نهضت متردداً، وبمجرد أن خرجت من الغرفة انقطع التيار الكهربي عن سائر المنزل، فانخلع قلبي من مكانه .. انطفأت كل مصادر الإنارة، اللعنة ماذا سأفعل الآن، هل أعود سريعاً إلى غرفتي، هل أبحث عن مصدر الصوت و أكشف سره الغامض، حسناً يكاد قلبي يتوقف لكني سأواصل. مشيت حتي موضع الشمعدان المستقر فوق خزانة الأدراج، أخرجت قداحة من الدرج الأول و أشعلت فتيل شمعة من الثلاث شمعات، و

سرت بها و قد أضاءت حولها هالة خافتة سمحت لي بالرؤية المحدودة ، لكنها لم تخفف من خوفي غير المحدود .

مشيت بقدمين مترددتين، خطوة تلو الخطوة و أنا أحمل الشمعة بيدي بترقب، متلفتاً حولي في كل اتجاه، كان الظلام يحاصرني و تحاصرني معه مخاوفي وتخيلاتي .. أخطر الأعداء هو العدو الذي لا نراه .

تردد الصوت بإصرار فابتلعت ريقي بكل صعوبة و فزعت حين اصطدمت بإحدى قطع الأثاث الصامتة .

واصلت بحثي والصوت يعلو أكثر. أصغيت بتركيز، حتي استطعت تحديد مصدره، هذا الصوت يأتي من ناحية القبو !

حسناً لم أفكر في فحص القبو من قبل، تحركت حتي اقتربت من المقبض المعدني المثبت في باب أرضي من الخشب يقود إلى القبو، ثم جذبته إلى الأعلى،

فطالعني ذلك الدرج الذي يقود إلى الأسفل والغارق في الظلام والغموض.

حاولت مقاومة إغواءات النزول لكني لم أستطع ، فبعض الغوايات لا يمكن مقاومتها، وضعت قدمي على أول درجة بحذر، و نزلت على السلم الذي كان يئن من ثقل جسدي على درجاته القديمة و أنا أرتجف من الخوف و القلق .

لن أبالغ إن قلت أن كل درجة كنت أنزلها إلى المجهول، كانت تزيدني توجساً.

وصلت إلى أرضية القبو الذي لا يظهر منه إلا بضع كتل ساكنة ملقاة هنا و هناك، وجهت الشمعة تجاه الأركان و الحوائط ذات البقع الرطبة التي كانت تحتضن ظلال تلك الكتل، لتظهر في النهاية كأشكال مخيفة تحملق في الأغراب مثلي بنظرة غاضبة لا تخلو من التهديد .

ارتجفت حين سمعت الصوت يتردد خافتاً :

- آدم .. أخيراً أنت هنا .. لماذا تأخرت يا رجل؟ .

انكمشت للحظات متوتراً، ثم استجمعت شجاعتي، لكن صوتي خرج في النهاية ضعيفاً متأثراً :

- أنا هنا .. من أنت .. و ماذا تريد مني؟ !

سمعت صوت ضحكة قصيرة ساخرة :

- ألا تعرفني ؟

لم أكن أصدق أن محادثة كهذه ممكنة، فالتكلم مع كيان غير مرئي، و سماع صوت من عالم آخر .. لهو شيء خيالي، لم أصادفه إلا في الحكايات .

تمالكت نفسي بأعجوبة و أنا أرد :

- لا تراوغني .. أخبرني من أنت ؟ ما اسمك ؟

- كم أنت سطحي، و هل سيشكل اسمي فارقاً، ينبغي أن أبدأ أنا بطرح الأسئلة لأنك الضيف !

- لا أفهم شيئاً منك .. ماذا تريد مني ؟

- متعجل كبني جنسك .

ثم صمت قبل أن يستطرد :

- لا فائدة فيكم .. لا فائدة .

- منذ متي و أنت هنا؟ .

- منذ البداية .

فجأة، ترددت ضحكات ساخرة في كافة الجنبات ،و شعرت أن السقف فوقي سينهار من قوتها، سارعت بالخروج و صعدت الدرج مذعوراً، حين وصلت إلى الأعلى أغلقت الباب الخشبي، و مع انغلاقه خفتت الأصوات و عاد كل شيء هادئاً كما كان .

كأن الباب هو الحد الفاصل بين عالمين .

***

- أريد الغناء .. !

باغتتني (سيلين) بالطلب .

- غني !

رددت ببساطة لكنها فاجأتني بعبارتها المترددة :

- أريد أن أغني في نادي الفنون .

كنت أعرف أنها تحب الغناء منذ أن كانت صغيرة، كما أن صوتها عذب، طلبت في بدايات ارتباطنا أن تحترف الغناء، لكني أقنعتها بالعدول عن تلك الرغبة حتي لا يشاركني فيها أحد، و قد قبلت بكلامي طوال السنتين الماضيتين، فكانت لا تغني سوي لي .. ها هي قد عادت لتجدد الرغبة والطلب.

- تحدثنا في هذا الأمر من قبل.

- أعلم يا آدم، لكن الملل يقتلني.

- من أين تخرج تلك الأفكار فجأة ؟! دعك من تلك الوساوس.

- إن كنت تحبني، فدعني أخوض التجربة .. أنت تعلم جيداً شغفي بالغناء.

كان عقلي مشغولاً بما حدث في القبو ولم أكن مستعدا للتناقش معها .. كنت أعرف النساء، لا مشكلة لديهن في الإلحاح لقرن قادم من أجل شيء يردنه.

- سأفكر.

خرجت من المنزل كي أتخلص من حصارها، وضعت يدي في جيوبي و أنا أتمشى، كأنني رجل غير متزوج، و كأني رجل حر .

لمحت ذلك الإعلان الملصق على الحائط و دققت النظر فيه .

(الفنانة الشابة أوليفيا تحيي حفلة غنائية في نادي الفنون)

تحت العنوان رأيت صورة لـ (أوليفيا) و هي مبتسمة، و كانت عيونها أخاذة و سحرية . لم أكن أعلم أنها

تغني، لكنها مفاجأة مثالية .

التاريخ يوافق اليوم، سيكون الحضور فكرة جيدة، خاصة و أنها ستكون أمسية مختلفة ستنفض عني بعضاً من جنون الأمسيات الماضية .

فكرت .. ماذا لو أن تلك الليالي المرعبة هي محض كوابيس متكررة ؟؟

لكني تراجعت حين تذكرت وضوح الصوت و عمقه في أذني، نعم .. المحادثة كانت حقيقية، هناك روحاً تسكن ذلك القبو، أصبحت متأكداً من ذلك تماماً .

في الموعد كنت مستريحاً على أحد الكراسي المخملية الحمراء مرتدياً حلة سوداء أنيقة ،كان عدد الحضور متوسطاً، بضعة أشخاص متناثرين على المقاعد، أنبأني ذلك أنها لا تقدم فناً رديئاً، أو ترتدي فساتين فاضحة، و إلا لامتلأت القاعة للصف الأخير .

أُطفئت الأضواء و تركز شعاع ضوء واحد على الميكروفون الصامت في منتصف المسرح .

و ظهرت كالملاك ..

بوجه سماوي، و بمداري كحل حول كوكبي عينيها الخضراوين، أثارت في مشاعري العواصف بعد أن كانت هادئة، ظهرت أوليفيا ليلتها بلا أي مقدمات، كمطر شتوي مبهج، انهمر فجأة في أحد أيام الصيف !

هل كانت تذكرتي لحفلة بنادي الفنون أم إلى الجنة ؟!

أخذتني عذوبة صوتها و هي تؤدي أغنية (Danny Boy) بكل رقة، امتلاء شفتيها وأنوثة جسدها المتوهجة .. لقد تأثرت ليلتها بـ (أوليفيا) لدرجة أن روحي كادت أن تغادرني و ترتقي درجات المسرح كي تعانقها !

لقد كاد العالم أن يملأ روحي بالظلمة التامة، لولا أن أضاءت جنبات روحي أنوارها الملائكية !

في النهاية، كنت آخر من خرج من القاعة .

واجهت المدينة منتشياً و متآلفاً مع نفسي، كانت برودتها في تلك الليلة منعشة لكن شوارعها كانت تراقبني، كانت تهمس لي و هي مشفقة على حالتي : و ماذا عن زوجتك الآن ؟ !

أطرقت رأسي قليلاً، حين بدأت السماء تمطر ، فكرت .. قد يكون الحل في الأمطار، حين تمطر فإن المدينة تغتسل من آثامها و تولد من جديد، سأقف تحت المطر حتي أغتسل أنا الآخر من كل عبثي و نزواتي، تتابعت القطرات حتي ابتلت ملابسي تماماً، و بدوت وأنا عائد إلى المنزل كمن خرج من غياهب بئر سحيقة !

***

- هل ستترك (أوليفيا) تضيع من بين يديك ؟

قالها الشيطان حين مررت بجوار القبو عازماً النوم، نزلت إلى الأسفل وواجهت صوته بشجاعة زائفة في باطنها خوف عميق متواري :

- كيف عرفت بأمرها ؟

- قرأت أفكارك بمجرد دخولك !

- ما الذي تريده مني ؟

- أنت من تريد .. تريد أوليفيا بشدة لكنك ما زلت متردد .. افتح عينيك جيداً لتدرك كم أنت ساذج!

- لماذا تسكن هذا المنزل بالتحديد ؟!

- كفي ثرثرة فارغة .. تأمل وأخبرني رأيك .

فور انتهاء جملته تجسدت (أوليفيا) أمامي بشكل عجيب .. كانت شديدة الفتنة، ترتدي فستاناً مثيراً، يكشف عن جسد متفجر الأنوثة وتتمايل بدلال وهي تتأملني بنظرات جريئة، مليئة بالرغبة والاشتهاء !

ارتبكت وابتلعت ريقي بصعوبة، هربت الكلمات من على شفتي .

ترددت ضحكته الساخرة مخترقة قناة استاكيوس في أذني :

- كم أنت منافق، يسيل لعابك على الفتاة ثم تصرح بعكس ذلك .. كفي مراوغة يا رجل لأني أراك بوضوح .. أكثر مما تري أنت نفسك .

قلت متلعثماً :

- لا .. أنت مخطئ، لأنني أحب زوجتي كثيراً .

- زوجتك ! ألا يقتلك الملل كل يوم، ألا يثير حنقك التكرار، ألم تصبح رمادية في عينيك منذ تركت نفسها تغرق في بحور الأعمال المنزلية المعتادة و لم تعتد تهتم بنفسها .. اصعد الدرج و غادرني لأنني أحتقر المخادعين لأنفسهم .

بمجرد أن أنهي جملته، رأيت دخاناً يتجسد أمامي على هيئة كائن لا تبدو ملامحه أو تفاصيله، فقط شكل من الدخان له رأس و يدان وقدمان، تراجعت إلى الخلف حتي شعرت فجأة بقشعريرة تجتاح سائر جسدي و كأن ذلك الكيان قد تلبسني تماماً، سارعت بصعود

الدرج مفزوعاً و أنا ألعن اليوم الذي قررت فيه شراء المنزل .

(6)

- و لماذا لم يسمح لك زوجك بالغناء في نادي الفنون ؟!

ألقت (إيزابيلا) السؤال على (سيلين) في حديقة المنزل الوارفة .. مصطنعة دهشة ذات دوافع خفية .

- إنه لا يؤمن بغنائي كسيدة أمام الرجال .. إنها الغيرة !

- شيء غريب .

- ما الغريب ؟

- أخبرني زوجي أنه رأي السيد (آدم) بالأمس يحضر حفلة في نادي الفنون .

- حفلة ! .. أية حفلة ؟

- حفلة لمغنية من المدينة اسمها (أوليفيا) .

راجعت (سيلين) مظهر (آدم) الأنيق بالأمس و سؤالها له عن السبب:

- أين تذهب بكل هذه الأناقة .

- لدي موعد مهم .

انقشع المشهد من ذهنها و هي ترد بارتباك على السيدة (إيزابيلا) التي كانت تمسك بمبرد تشذب به أظافرها :

- نعم .. لقد أخبرني .. تعرفين الرجال .. يؤمنون بالمبادئ و يفعلون عكسها .

تأملت (إيزابيلا) أظافرها و هي ترد بلا مبالاة :

- نعم يا عزيزتي .. في هذه النقطة لديك كل الحق .

شعرت (سيلين) بالضيق، لماذا كذب رجلها عليها، لماذا هذه الازدواجية الواضحة .. يمنعها من الغناء ثم يذهب لحضور الحفلات الغنائية في نفس اليوم .. أدركت أن حدسها الأنثوي قد التقط شيئاً غير مألوف،

و أيقنت حينها أن زوجها قد أصبح غريباً في الفترة الأخيرة و أن مؤشر ثقتها فيه قد بدأ في الاهتزاز .

***

بعد تلك الأيام لم تعد أحاديث الشيطان معي مرتبطة بنزولي إلى القبو، بل أًصبح يحدثني و أنا في أي مكان، أسمع صوته في عقلي و يهمس في أذني، و أحياناً يحدثني بنفس نبرة صوتي !

تأكدت بذلك أنني أصبحت ممسوساً وأن ذلك الشيطان قد سكنني تماماً و استحوذ على روحي .

كنت أدرك في قرارة نفسي أنه يدفعني لفعل ما يتعارض مع مبادئي، لكنه و للحقيقة كان لديه الحق أحياناً .

هل يستمع الآن إلى أفكاري و يعرف ما أنتويه ؟

(سيلين) هي الأخرى تغيرت و لم أعد أرى تلك النظرات الصافية في عينيها، عرضت المنزل للبيع

بعدما أقنعتها بوجود منزل آخر في مكان أكثر رقياً و يطل على بحيرة أكبر وأبهى.

همس الشيطان في أذني بينما كنت في العمل :

(أليس من حقك أن تمتلك نسبة من ملكية المكتبة بعد كل سنوات عملك فيها، لماذا لا يفكر (ألبرت) في ذلك رغم أنه عجوز ولا يملك أبناء؟)

ما الذي يقوله هذا المختل .. كيف لي أن أطالب بشيء ليس ملكي؟، أنا أتقاضى راتباً على عملي هنا، كما أنه من المؤكد أن زوجة السيد (ألبرت) ستعهد لي بكامل إدارة المكتبة بعد وفاته .

هنا تجسدت مرة أخري تلك الصورة العجيبة .

رأيت خلالها السيد (ألبرت) يجلس في حديقة منزله مع زوجته و يتبادل معها حديثاً أثناء الإفطار :

- أتتذكرين ابن أخي الذي حدثتك عنه، ذلك الذي كان مسافراً بالخارج .

ردت زوجته :

- نعم ، كان ذلك منذ زمن .

- سيعود قريباً من سفره، أفكر في أن أهبه المكتبة كي تكون مشروعه الخاص، أغلب الأمر أنه سيحولها إلى نشاط آخر يتوافق مع دراسته و أفكاره .

- لقد أخبرتني أنه شاب ذكي، و من الأفضل له أن يحولها إلى مشروع تجاري لأن الكتب ليست بالتجارة المربحة التي تستحق الإبقاء عليها .

عند هذه النقطة تبخر كل شيء .. أهي واحدة من ألاعيبه ؟

دارت رأسي و ذلك الخبيث يقهقه بسخرية في أذني :

- ألم أقل لك أيها الساذج .. تظنني ضدك وأنا حريص عليك !

إنه محق، لقد أخبرني (ألبرت) باقتراب عودة ابن أخيه حين كان في منزلي . كيف يقدم على هذا العمل دون مشورتي، و كيف أعرف أنه سيكون لي مكان في ذلك المشروع المزعوم الذي سينشئه ابن أخيه، هذا يعني أنني سأخسر عملي، يا للمصيبة !

لن أخبر (سيلين) بشيء حتي أتأكد، لكني سأسألها عن سبب تغيرها في الفترة الأخيرة .

واجهت نظرات السيد (توماس) مرة أخري أثناء وصولي إلى حديقة المنزل، قمت بتحيته من بعيد، لكنه لم يرد التحية مباشرة و إنما تأملني لثوان، رفع بعدها يده بتثاقل و بابتسامة صفراء .

بمجرد أن التقيت زوجتي سألتها :

- ماذا بك يا سيلين؟

- أنت شخص غريب .

- ما الذي حدث .. و ماذا تقولين؟

- ألم ترفض غنائي في نادي الفنون؟

- بلى ولقد تحدثنا في هذا الأمر .

تغيرت تعبيرات وجهها فعرفت أننا مقبلان على شجار :

- لكنك ترى أنه من حقك الذهاب إلى هناك و الاستماع إلى أغنيات الفنانات الشابات.

- من الذي أخبرك بهذا؟

- ليس مهماً .. المهم أنها الحقيقة، هل تستطيع الإنكار ؟

- نعم و ماذا في ذلك .. مررت بالصدفة بجوار النادي فقررت حضور الحفلة كنوع من التغيير.

- و لماذا لم تخبرني؟

- و ما الداعي لأن أخبرك بهذا يا سيلين، إنها مجرد حفلة ليس أكثر .

بدت متشككة في أمري وهي محقة، ذلك لأنني لم أكن صريحاً، لقد حرفت حقيقة ما جرى والحقيقة الملتوية هي جوهر الكذب.

إذا لم أكن صريحاً مع زوجتي فينبغي على الأقل أن أكون صريحاً مع نفسي!

حسناً يا (سيلين) لن أتركك حتي أعرف من الذي أخبرك بحضوري تلك الحفلة وإلى أي درجة من الخبث كانت نواياه!

في ساعة من الليل، لمحت ظلالا على النافذة الزجاجية الكبيرة بجوار سريري، نهضت متعجباً و رميت ببصري من خلفها، كان بالبحيرة شيء مختلف، لم يكن مظهرها مألوفا، فتحت النافذة ودققت النظر، كانت هناك بعض التحركات على سطحها اللامع، بضعة أشخاص لم أستطع تمييز عددهم أو ملامحهم، يخرجون من قلب المياه ليركضوا فوقها ثم يختفون مرة أخرى في عمق البحيرة كالسراب .. حين أطلت النظر، شعرت بهم جميعاً يلاحظون وجودي و يلتفتون

نحوي، أغلقت النافذة بسرعة هستيرية وأويت إلى فراشي وغطيت وجهي تماماً بالأغطية، و أنا أكاد أتجمد من الخوف!

(7)

- جئت لأشكرك على حضورك حفلتي.

قالتها (أوليفيا) بعدما تعطرت المكتبة بوجودها كالعادة.

رددت سعيداً:

- لم أعرف أنك لاحظت وجودي .. أنا من أريد شكرك على تلك الأمسية.

(اطلب منها موعداً للخروج سوياً) همس الشيطان في أذني.

- و أنا لم أتوقع حضورك، لم أعلم أنك مهتم بالموسيقى والغناء.

- الفنون كلها تجلٍ لشيء واحد يجمع بينها وهو الإبداع .. حقيقة لم أكن أعلم أنك مغنية .. أحسنت على كل حال في تلك الليلة.

(لا تكن عنيداً، أنت تريد ذلك، اطلب منها موعداً)

ابتسمت لي وهمت بالمغادرة، بمجرد أن أعطتني ظهرها ناديتها:

- أوليفيا.

التفتت لي متسائلة فتابعت:

- لو أحببت أن نستكمل حديثنا عن الفنون في أي وقت، سأكون سعيداً.

- و أنا سأكون ممتنة.

- هل من طريقة للتواصل.

- بالطبع، هذا هو رقم تليفوني، أتطلع إلى لقاء قريب.

كنت متوتراً، بمجرد أن غادرت حتي تنهدت وملأ الأكسجين رئتي و تأملت رقم تليفونها الذي خطته على ورقة بيضاء بعينين لامعتين.

ورقة أجمل في عيني من أوراق اليانصيب الرابحة.

لا أدري إن أصبح ذلك الشيطان يتحكم في ما أفعل حقاً، لكن الشيء الذي أعرفه أن قراراتي لم تعد حرة، ذلك الوغد يؤثر في تفكيري بشكل ما.

قطع أفكاري دخول ذلك الموظف إلى المكتبة:

- السيد آدم؟

- نعم، هو أنا.

- أتيت لأعلمك رسمياً أنه سيتم هدم و إزالة منزلك.

- ماذا تقول يا هذا، و لماذا ستقومون بإزالته؟

- هذا المنزل جرى عليه نزاع قديم بين المالك و بلدية المدينة وتم الحكم لصالح الأخيرة و صدر القرار بالإزالة.

- أنا لا أعلم شيئاً عن هذا.

- إذا كان هذا صحيحاً فلقد تعرضت لعملية خداع للأسف و نحن غير مسئولين عنها .. من فضلك أريد توقيعك بالعلم على هذه الورقة.

وقعت له وأنا مذهول.

ورقة القرار كانت أسوأ في عيني من شهادات الرسوب في المدرسة.

كيف لم يخبرني (جون) بذلك؟

من المفترض أن المنزل مبرأ من أية نزاعات أو حقوق.

اتصلت به لكنه لم يرد .. كما أنه قد سافر منذ أن باعني المنزل.

ماذا الآن، إذا تم تنفيذ حكم الإزالة سأفقد المنزل و بالتالي لن أتحصل على نقود من أجل شراء منزل آخر كما كنت أريد، بالإضافة إلى أنني لن أجد مكاناً أعيش فيه من الأساس.

ما الذي يحدث لي؟!

يا للنكبات المتتاليات.

سأفقد المكتبة ثم المنزل و لن يتبقى لي شيء!

(امنح الموظفين بعضاً من النقود كي يتم تأخير تنفيذ الإزالة، حتي تجد حلاً)

كفى نصائح أيها الشيطان المخبول و غادرني، منذ أن تكلمت معك وعرفتك والمصائب هابطة على رأسي من كل اتجاه.

اخرس و دعني و شأني.

اختفى الصوت، و بقيت متقلباً في قوارب أفكاري المضطربة.

فشراع عقلي يوشك على الانهيار وسط العاصفة.

تذكرت فجأة حفل التوقيع الذي سيقام في المكتبة اليوم، إنني لم أجهز شيئاً حتى الآن!

حملت المنضدة الكبيرة و وضعتها في بقعة تتوسط المكان، وضعت فوقها مزهرية بها وردات مبهجة و زجاجة مياه صغيرة ثم رصصت عدة نسخ من الكتاب على الجانبين، جئت بالكراسي الخشبية ورتبتها أمام المنضدة بشكل منتظم، و عطرت الجو برذاذ الماء والليمون، هكذا صرنا مستعدين للحفل.

قرأت اسم الكتاب مجدداً بعيني (مدارج الغواية)، اسم غامض يدعو للفضول.

أبلغت (سيلين) بأنني سأتأخر فشعرت بشكوكها نحوي في نبرة صوتها، توافد بعض الحضور فرادى حتي وصول الكاتب، رجل واثق وبسيط، تزين محياه ابتسامة تليق به، و يتناقش حول كتابه بكل حماس، كنت أصف الكاتب دائماً بأنه شخص مُبتلى بشغف الحكي!

لكني شعرت بصدمة مزلزلة، حين رأيت جاري السيد (توماس)!

لمحت في عينيه ابتسامة ساخرة وكأنه سعيد بأني تفاجأت، هذا الرجل مريض نفسي بلا شك.

لا بد من أن هناك واد في الجحيم لأولئك الذين يواجهوننا بابتسامات مزيفة.

وقفت صامتاً بينما تقدم هو إلى كرسيه و جلس، و حين حضر السيد (ألبرت) هو الآخر ، اقتربت منه و سألت:

- هذا الرجل جاري، أتعرف عنه شيئاً.

- رأيته بضع مرات في المدينة، لكني لم أتعرف إليه بشكل شخصي.

تطلعت إليه للمرة الثانية، كان يتبادل الابتسامات والغمزات مع امرأة بجواره لا أعرفها، بدا لي أنهما في علاقة جادة .. تري هل تعلم زوجته بما يفعل؟

في نهاية المطاف لاحظت أن الأوغاد جميعهم تجمعوا هنا، الجار المخبول و صاحب العمل الذي يوشك على

طردي، ألا يمكن التخلص من الجميع دفعة واحدة؟

دعوت في سري أن تشتعل المكتبة ذاتياً بكل ما فيها !..

(8)

عزمت على التوجه إلى مبني البلدية الواقع في وسط المدينة، كنت مرهقاً، لا أكاد أمتلك القدرة على فتح عيناي، لذا فقد فضلت استقلال سيارة أجرة.

جلست في مقعدي بينما العالم كله خارج السيارة كان يركض إلى الخلف، مزارع البنفسج مرت بجواري بشكل أسرع من مرورها المعتاد حين أقود دراجتي.

وصلت أمام المبني مرتدياً حلة كحلية اللون تخلو من ربطة عنق. وقعت عيناي على ذلك الشعار اللامع الذي يحتل أعلى واجهة المبنى، فشعرت و كأنه قد استمد لونه من اختزانه المستمر لأشعة الشمس.

- لقد جئت إيماء للإعلان الذي وقعت عليه بخصوص منزلي.

- نعم، أثير نزاع قانوني حول ذلك المنزل تطور إلى القرار بإزالته.

- و ما الحل .. لم أكن أعلم بذلك حين اشتريته.

- قم بتسوية الأمر قانونياً، هذا هو المخرج الوحيد.

(اعرض عليه مبلغاً من المال، الأمور القانونية تستغرق أعواماً) همس في أذني الشيطان.

خرجت كلماتي ضعيفة ومترددة:

- بإمكاني دفع مبلغ من المال مقابل إنهاء الأمر.

- لم أفهمك سيدي، لا يوجد في نص القرار أي مبالغ مالية يتوجب دفعها لبلدية المدينة.

ركزت في عينيه مباشرة وأنا أهمس:

- من تحدث عن بلدية المدينة هنا.

بدأ يفهم ما أرمي إليه وأنا أتابع:

- أحدثك أنت.

- أتعرض علي رشوة؟

(لا تصمت، قل له أنا أعرض تسوية)

- أنا أعرض تسوية.

- جيد، سأريك تسويتي العادلة.

اختفي من أمامي لدقائق و عاد صارماً بصحبة شرطي كثيف الحاجبين والشارب، باغتني قبل أن أدقق في بقية ملامحه:

- لقد قمت بكتابة تقرير بواقعة عرضك للرشوة على موظف، من فضلك أعطني يديك.

أعطيته يدي مذهولاً، وهو يقيدهما بقيد حديدي.

- لك الحق في الصمت حتى حضور من يمثلك.

اللعنة، ماذا أفعل أيها الشيطان، أين ذهبت أيها الملعون إلى الأبد .. !

هل دفعتني للهاوية بنصائحك الغبية .. ثم تراجعت وسكت صوتك؟!

***

تم الزج بي في غرفة احتجاز ذات كرسي واحد في منتصفها، قلت متهكماً حين جلست عليه: على الأقل سأرتاح من هواجسي الليلية في ذلك المنزل، رأيت أنه في كل مصيبة، هناك منفعة تحتاج إلى بصيرة كي تراها، لكن ما أحزنني حقاً هو تذكري لـ (سيلين).

لم أكن وحدي في الغرفة، بمرور الوقت الطويل ظهر معي في الغرفة وحشان غرسا مخالبهما في روحي على الفور بكل شراسة و قسوة ..

أحدهما يسمى الترقب والآخر يدعى القلق .. !

أخيراً، فتح الباب و دخل الشرطي بنفس تعبيراته الصارمة، لكنه بمجرد أن اقترب مني لانت ملامحه و أخرج مفتاح القيد الحديدي وأقحمه في ذلك الثقب الصغير حتى فتحه وحرر يدي:

- عد إلى منزلك.

- مهلاً .. ألن يتم القبض علي !

- لا لقد تم حل الأمر مؤقتاً.

- كيف ؟!

- لقد حضر القانوني وكيلاً عنك و شرح لنا كل شيء .. من الواضح أنه تم خداعك، لكن القانون لا يحمي المغفلين .. تغاضينا عن أمر الرشوة هذه المرة .. إذا ارتكبت حماقات أخرى فتوقع منا تصرفات أخرى حيالك.

- القانوني ؟ !

- سيد (آدم) لا تنس أن أمر المنزل لم يحل بعد.

قالها الشرطي وهو يعطيني ظهره، شعرت أنه لن يخبرني بالمزيد، كلماته القليلة التي تفلت من بين فراغات أسنانه لن تستمر، وقد يتجاهلني تماماً حال وجهت له مزيداً من الأسئلة، لذا فقد ابتلعت أسئلتي و

غادرت الغرفة وأنا أتحول إلى علامة استفهام بشرية كبيرة تتحرك بلا جواب.

في الممر قابلت صديقي القانوني الذي كان ينهي بعض الأوراق، و أخبرني أن أحداً يعلم بصداقتنا قد أبلغه بوجودي، فشكرته على تدخله و على وعده بمتابعة أمر المنزل لأجلي، هذا الرجل متمكن حقاً و لديه علاقات واسعة.

على باب المنزل، قابلتني (سيلين) بوجه متشكك، أصبح في آخر الأيام معتادا:

- أين كنت يا آدم، لقد اتصلت بتليفون المكتبة كثيراً؟

- لا تقلقي، حدثت مشكلة بسيطة و تم حلها .

صمتُّ قليلاً ثم ومضت في ذهني صورة (توماس) بدون سبب فالتفتُّ إلى (سيلين) وسألتها :

- ألم تخبرك (إيزابيلا) عن طبيعة عمل (توماس) .

- لم توضح كثيراً، قالت أنه كان يمارس بعض الأعمال التجارية و امتلك بسببها قاعدة من العلاقات الجيدة، لماذا تسأل ؟

- هذا الرجل مضطرب و هدوئه مستفز ولا يروقني، كما أنني لا أرتاح له لدرجة أنني أِشعر أنه يخبئ مقبرة جماعية تحت منزله .

(لماذا تبدو زوجتك مضطربة؟)

ترددت العبارة في عقلي ممزوجة ببعض الشماتة .

أمازلت هنا ؟! لم أجدك حين كنت متورطاً منذ قليل، اختفيت حين أصبح الأمر جدياً، و كل ذلك بسبب ماذا، بسبب وساوسك غير المجدية..!

- حبيبي، سأخرج الليلة بصحبة السيدة (إيزابيلا) للتبضع من المدينة.

- سيلين .. عليك أن تبتعدي عن هذه المرأة .

- لماذا ؟ إنها سيدة لطيفة و تقضي معي وقتا طويلا للتسامر ، بدلاً من الجلوس وحيدة أثناء وجودك في المكتبة .. أرجوك لقد وعدتها بالخروج معها .

- سنناقش هذا فيما بعد، و لا يجب عليك قطع الوعود قبل الرجوع إلي .

- حسناً يا آدم و ماذا عن اليوم .

- سأسمح لك بالخروج هذه المرة، على وعد ألا تتأخري .

تهللت أساريرها و قلت في نفسي : أنا أيضاً أحتاج لأمسية لطيفة تخفف عني الضغوط التي مررت بها اليوم، سأتصل بـ (أوليفيا) بمجرد مغادرة (سيلين) و لأرى إن كان بإمكاننا أن نتقابل .

بالفعل انتظرت حتي خرجت ثم اتصلت بفتاتي و بادرتها بصوت واثق:

- إذا كنت تملكين بعضاً من الوقت .. فأنا جاهز لاستكمال حديثنا حول الفنون .

- دعني أتذكر إن كنت متاحة اليوم .

جيد سأنتظر الرد الآن و عليها أن توافق لأنني لن أعرض عليها الخروج مرة أخرى إذا اعتذرت هذه المرة، فكيف لي حين تعطيني عذراً، أن أستشف إن كان عذراً حقيقياً أم أنه ستار لرغبة غير معلنة في عدم الخروج معي، هل أبت أن توقعني في الحرج حين عرضت عليها أن نتقابل ؟!

كفى تفكيراً، لم يعد لذلك أهمية، خاصة و أنها تستعد للرد الآن .

- سأكون موجودة الليلة في مقهى لاروز .. سأسعد بتواجدك .

أفعمني الرد بالحماسة .. لكن الشيطان الذي يسكن عقلي رفض أن يتركني سعيداً .. لماذا لا يعود إلى قبو المنزل كما كان فأستريح .. !

سمعته يضحك ساخراً، فسألته بغيظ :

- لماذا تضحك ؟

همس في أذني :

(دعني أسألك سؤالاً بريئاً .. هل أنت متأكد من أن زوجتك قد خرجت للتبضع ؟)

- نعم، ماذا تريد أن تقول ؟ إن كان لديك شيئاً فأخبرني به دفعة واحدة و لا تتفلسف !

(زوجتك ستقصد مكاناً آخر مع تلك المرأة)

- ماذا تقول أيها التعس ؟

(أهمس في أذنك بالحقيقة أيها الزوج المغفل)

- أنت كاذب، سيلين لن تفعل شيئا دون أن تخبرني .

قهقه ساخراً مني :

(تستطيع التأكد بنفسك)

أصابتني كلماته في مقتل، ثارت بداخلي الشكوك كبركان مايون الفلبيني، هل قامت زوجتي بذلك حقاً .. ؟

منذ أن تزوجت (سيلين) و هي لم تقم بشيء قط دون الرجوع إلي .

(و ما يدريك ؟)

- اخرس أيها الشرير و اخرج من عقلي .

راجعت كل نقاشاتي معها مؤخراً وتوقفت عند إلحاحها المستمر بالغناء، هل يمكن أن تكون ..؟

***

طرحت(سيلين) السؤال على(إيزابيلا) و هي جالسة بجوارها في إحدى السيارات :

- هل أنتِ متأكدة أن ما نفعله هو الصواب ؟

- ما رأيك أنتِ، ألا تريدين الغناء ؟

- بالطبع أريد، لكني لم أفعل شيئاً دون أن أخبر زوجي من قبل .

- حبيبتي .. لو استسلمنا لهؤلاء الأطفال الكبار سننطفئ و نموت، أفكر .. إنهم يجوبون المدينة طوال اليوم و لا نعرف بالتحديد ما الذي يفعلون، لا يخبروننا بأي شيء و لا يطلبون إذنا للقيام بشيء، فلماذا لا نبادلهم ذات الاستقلال ؟!

- لقد طلبت من (آدم) أن يسمح لي بالغناء أكثر من مرة، لكنه في كل مرة كان يرفض أو يتجاهل .

- دعك من هذا القلق، فقط حاولي الاستمتاع وأطلقي لروحك العنان، تحرري من سجن الزوجية لليلة واحدة، و سأكون بالقرب منك أساندك .

عادت (سيلين) تراقب الطريق و هي تحاول الاقتناع بالمنطق الذي تكلمت به صاحبتها .

***

لم أحتمل الانتظار، خرجت قاصداً نادي الفنون و أنا أرسم صورة في مخيلتي لما يمكن أن أراه، أتمنى أن أكون مخطئاً، و إذا كان حدسي صائباً فلا بد أن (إيزابيلا) هي صاحبة تلك الفكرة، لا بد أنها هي من شجعتها على عصياني، فـ (سيلين) طيبة لا تقدم على شيء متمرد كهذا من تلقاء نفسها، كان علي أن اتحرى عن جيراني أولاً قبل شراء هذا المنزل الغريب !

وصلت إلى النادي و أنا أتمنى أن لا أجدها، دخلت من باب القاعة و كأنني أفتح أبواب الجحيم .

رأيتها هناك في تلك البقعة على المسرح بكامل زينتها التي لم أرها منذ سنوات، ترتدي ذلك القرط الذي أهديته لها في ذكرى زواجنا و ترتدي عقداً لم أره كثيراً حول رقبتها، كانت تمسك بالميكروفون و تشدو بأغنية لم أسمعها قبل اليوم بكل انسجام، وكانت نظرات الإعجاب تتقافز من أعين الحاضرين .

أما عيناي أنا فكان الشرر هو الذي يتطاير منهما، تحولت إلى الشيطان الذي يسكنني، كأنه تجسد أخيراً

على هيئتي، أم أنه قد سيطر على روحي تماماَ ؟!

شعرت أن الغيرة تنهش قلبي، فأردت أن أخبئها عن سائر العالم .. !

انتظرت حتي انتهت أغنيتها، بعدها توجهت إلى غرفة الكواليس، استوقفني رجل على الباب، لكني أزحته بيدي بقوة غاضباً، فتراجع إلى الخلف و هو يترنح، نظرت إلى ذراعيّ لحظتها مندهشاً من القوة التي دبت فيهما .

فتحت الباب و دخلت فلمحتها، تجلس أمام المرآة التي رأت انعكاسي عليها لتصعق من قوة المفاجأة و كأنها رأت شيطانا .

لعلها رأت شيطانا حقاً !

- سيلين .

صرخت بصوت هادر اهتز ت له أركان قلبها، وقفت و هي منكمشة على نفسها :

- آدم ! ماذا تفعل هنا ؟

- مفترض أن أسألك أنا هذا السؤال .

أطرقت رأسها صامتة فأشرت لها بيدي :

- هيا، إلى المنزل .

أمسكت بذراعها و خرجنا مهرولين من نادي الفنون أوقفت سيارة و فتحت الباب الخلفي لها حتي ركبت، جلست بجانبها و تحركنا في اتجاه العودة و ظللنا طوال الطريق تحت وطأة سحابات الصمت الثقيلة الملبدة بغيوم الغضب، حتي انفجرت :

- لا أريد أن أراك مع المدعوة إيزابيلا مجدداَ، لابد أن تنقطع علاقتك بها .

- دعك من إيزابيلا، و ركز معي أنا، لقد حدثتك في هذا الأمر مراراً لكني لم أجد منك أي اهتمام ، لماذا تنصب لي المشنقة، لقد كنت كوردة تذبل .

- هذا لا يمنحك الحق في الكذب أيها الوردة الفواحة، هذا لا يهبك السلطة في التصرف من وراء ظهري، لقد ارتكبت خطأً كبيراً يا سيلين و الكبائر في عرفي لا تغتفر .

نظر إلينا السائق بقلق من خلال المرآة الأمامية الصغيرة، فالتزمت الصمت بعدما أفرغت بعضاً من غضبي المتقد، لقد كان بخار الماء يخرج من فمي في تلك الليلة ساخناً كأنه يتصاعد من قدر يغلي على النار .

وصلنا إلى المنزل واجمين، سألتني (سيلين) حين وجدتني أستعد لأن أغادر مرة أخرى:

- إلى أين أنت ذاهب ؟

- أحتاج أن أستنشق بعضاً من الأكسجين .

بالطبع كنت في طريقي إلى لقاء (أوليفيا) لأستنشق بعضاً من أنفاسها الأنثوية التي تملأ ما حولها بعبير

يأتي من الجنة وأتوق إلى أن أتأمل شفتيها الملونتين وأتخيل مذاقهما اللذيذ في خيالي !

(9)

كانت تنتظرني، اعتذرت عن التأخير، هزت رأسها متفهمة و مدت يدها كي تصافحني، لم أكن أريد أن يحدث بيننا أي تلامس جسدي، صافحتها بأطراف أصابعي وجلست قبالتها بابتسامة خفيفة صامتاً .

كانت تتطلع إلى شيء ما حين رفعت عينيها إلى عيني مباشرة متعمدة إرباكي .

و للحق فإن أنوثة (أوليفيا) ذلك المساء كانت طاغية .

كانت عيونها تغويني، تناديني، كعرائس البحر التي تغوي البحارة في أعالي البحار بصوتها الساحر، كأنها تخبرني بأن الوقت قد حان لبحار مثلي تائه وسط المحيطات أن يترك قمرته المملة على السفينة و يقفز في المياه بين يدي حبيبته نصف الإنسانة ليلهو معها ضارباً بالتحذيرات من الانجراف خلف الاشتهاء عرض الصخور حادة الحواف .

- أود أن أِشكرك لقبولك مشاركتي هذه الأمسية .

قالت بابتسامة أنثوية رقيقة :

- لا داعي للشكر، فحديثك الواعي عن الفنون هو ما جعلني أتطلع إلى هذا اللقاء .

- كنت أريد أن أسألك عن سبب دراستك للتاريخ، فهذا يدهشني حقيقة مع ميولك الفنية الواضحة .

- لأنني أقدر التاريخ كثيراً و أحب الخوض فيه، لدي شغف دائم بمعرفة ما حدث، كما أن للفنون تداخلات متعددة بالتاريخ، فلا يمكننا فهم الفن بشكل عميق قبل أن ندرس البيئات التي نشأ فيها و ساهمت في تطوره مع مرور الزمن .

أعجبتني طريقتها في النقاش، و جمعها بين الموهبة و الفتنة، بين الثقافة و الرزانة والأنوثة المغلفة بالإغواء ، هذه الفتاة خطيرة .. لماذا تحدق في عيني مباشرة مرة أخرى، ألا تدري أن تلك الطريقة في التحديق تربكني، أم أنها تدرك هذا كما أتوقع وتتعمد بسطوتها الأنثوية أن تنفذ إلى أعماقي المحتجبة.. !

تأملت تلك السلسلة التي تنتهي براقصة بالية على صدرها و حدقت في عينيها مباشرة كما تفعل هي، لعلي أربكها .

كدت أسألها إن كانت نظراتها هي محض تعاويذ سحرية تلقيها في قلبي لكني تماسكت و سألتها :

- هل يمكنني أن أخرج عن سياق النقاش و أسألك عن رأيك في الحب ؟

لم يبد عليها أي ارتباك، و إنما صمتت قليلاً قبل أن ترد :

- لم نخرج كثيراً عن السياق، فالحب بشكل عام هو منبع كل الفنون، فلا يمكن أن نتصور الإبداع في شيء لا نحبه، أما عن الحب الحالم بين البشر فأميل للقول بأنه قد رُفع من عالمنا، و لم يتبق منه سوى كلمات الأغنيات، من يضحي من أجل الحب في زمننا هذا هو محض شخص ساذج !

فكرت جيداً في كلماتها التي أصابتني بالقلق، يبدو أنها شخصية واقعية لا تؤمن بالحب الحالم غير المشروط، ينبغي أن أحذر في علاقتي المتنامية معها، لا بد أن أقاوم الانجراف مع تيارها بهذا القدر من الاستسلام .

سألتها سؤالاً خارج السياق، ومض في ذهني :

- و كيف حصلت على هذه الفرصة الممتازة بالغناء في نادي الفنون ؟

ابتسمت فزادت حُسناً :

- لن تصدق .. لقد كان الأمر كله محض صدفة و كان سريعاً، أحد المهتمين استمع لصوتي و أعجب بي و بفضل علاقاته بأصحاب المكان و تقديمه الجيد لي، تعاقد معي نادي الفنون .

- رجل يستحق الشكر .. ما اسمه ؟

- لقد قابلته مرة واحدة، إنه رجل يدعي توماس ..

- توماس !

إذاً فهو الذي أتاح لـ (سيلين) فرصة الغناء بطلب من (إيزابيلا) .

تراجعت بظهري إلى الخلف و شبكت يدي ببعضهما و عقلي يطلق صفارات إنذار عالية .

***

ودعت (أوليفيا) و عدت أدراجي إلى المنزل، كنت متطلعاً إلى النوم، تمنيت أن تكون (سيلين) قد نامت، فلا طاقة لي بمزيد من نقاشاتها الأبدية التي ستنقض بها علي فور رؤيتي .

حين فتحت باب المنزل سمعت صوت جلبة بالأعلى حيث غرفة النوم . صعدت السلم الخشبي بسرعة و أنا مرتعب، تهدجت أنفاسي من شدة القلق، دخلت الغرفة لأتفاجأ بـ (سيلين) يكسو ملامحها خوف عميق و بجوارها آخر شخص كنت أتوقع وجوده .

كان ذلك الشخص هو (توماس) أو أياً كان اسمه اللعين .

- ماذا يحدث هنا و ما الذي أتى بك إلى منزلي .

اندفعت (سيلين) ناحيتي وأجابتني و هي تبكي :

- لص يا آدم .. لص حاول سرقة المنزل و أنا فيه .. صرخت طالبة النجدة فسمعني جارنا السيد (توماس) و هرع إلى هنا و بمجرد أن وصل حتي هرب اللص .. لقد كدت أموت من الخوف .. !

حدق (توماس) في عيني و بدا صادقاً و هو يخبرني بانتشار السرقات في الناحية :

- لقد انتشرت عمليات السرقة و السطو في الآونة الأخيرة، لم تعد الأنحاء آمنة، لقد حذرت الجميع من قبل أن التهاون في هذا الأمر سيزيد من معدلاته، لكنك تعلم يا سيدي أنه لا أحد يسمع .

للحق، اندهشت من عبارته و حاولت أن ألوكها في عقلي لكنها كانت غير قابلة للمضغ:

- هذا خبر غريب، لم أسمع بعمليات كهذه في الفترة الأخيرة، لكني أشكر لك مساعدتك .

قلتها بلهجة جافة فرمقتني (سيلين) بنظرة عتاب، لا يهم فلتعاتبني كما تشاء، لن أتعامل بلطف مع شخص حوله كل تلك علامات الاستفهام، لن أناقشه في علاقته بنادي الفنون أو (أوليفيا) لن أنهره على تسهيل الغناء لـ (سيلين) لأن الخطأ في المقام الأول هو خطأها و خطأي، لن أسأله لكني بدأت أدرك طبيعته، هذا الرجل يحب إقامة العلاقات المتعددة مع النساء، لو أثبتت الأيام صدق حدسي، فسأجهز عليه إن وجدته يحوم حول (سيلين) يوماً ما، إن كان قد خدعه مظهري البريء فسوف أؤكد له ظنونه، سأتركه يأمن جانبي حتي يسترخي على العشب ثم سأنقض بعدها على رقبته و أغرز أنيابي بكل وحشية حتي تتسع عيناه ذهولاً و يترنح من فرط المفاجأة .

***

طلبت إجازة من السيد (ألبرت) حتي تهدأ أعصابي من الأحداث السريعة التي أمر بها، فوافق .

بينما كنت عائداً و الليل يسدل ستائره على الوجود، مررت بتلك الحانة المضيئة، كان لدي فضول لرؤيتها من الداخل و تأمل أوجه روادها الذين كانوا يزحفون إلى خارجها مترنحين، لكن امتناعي عن الخمر لم يجعل زيارتي لها ذات منطق .

(و ما المانع في إلقاء نظرة عابرة، كفاك جبناً و تردداً و كن رجلاً كباقي الرجال الذين تراهم في الشوارع من حولك).

اللعنة، لا أستطيع مقاومة هذا الفضول، تحركت ناحية الباب، دفعته بيدي ثم ولجت إلى ذلك العالم المختبئ داخل تلك الجدران المحدودة، كنت أقول أن هذا العالم المعروف الذي خلقه الرب، تختبئ بداخله عوالم أخري غريبة و مختلفة، أنشأها بني الإنسان .

كان هناك صخباً عالياً يتكون من موسيقات متداخلة، ذات نوعيات غير متسقة وثرثرة مكثفة تتطاير منها بعض الكلمات القليلة المفهومة، و تمتزج معها ضحكات نسوية منحلة مردود عليها بابتسامات ذكورية صفراء .

هل أخطأت بالولوج إلى هذا الماخور القذر ؟

جلست على الكرسي المستدير الدوار و ركنت مرفقي الأيسر على الطاولة الخشبية الأفقية فواجهني النادل بنظرات متسائلة .

ماذا أقول، أنا لا أشرب الخمر و لم أتمل من قبل قط، أنا حتي لا أعرف أنواع المشروبات هنا و أسمائها .

(ماذا أفعل معك، أخبرني ؟! ما الذي ستخسره من التجربة أيها الخائب؟ كأسٌ واحدٌ يكفي حتي تتوفر لديك المعرفة بطعمه، حتي تستطيع أن تصرح بتذوقه إذا سألك أحد الرجال الحقيقيين المحيطين بك أيها المزيف .. ذريعتك أنك لا تعرف أسماء المشروبات ؟؟ و

ماذا عن الفودكا و الشامبانيا ألم تسمع بهما عشرات المرات أم أن الزهايمر قد نخر ذاكرتك و تسوست ؟)

تخطى النادل هذه المرة مرحلة التساؤل بالنظرات و سألني مباشرة :

- ماذا أحضر لك يا سيدي ؟

شمرت عن ذراعي و فتحت أزرار قميصي العلوية ثم عدلت من وضع خصلة شعري إلى الخلف :

- فود .. شمبانيا .. كأساً من الشمبانيا .

قبض الرجل على عنق زجاجة و فتحها بصوت مسموع، تابعت ذلك الفوران عند رأسها و هو يسكب منها في كأس زجاجي أنيق، لعل رأسي تفور الآن مثلها .

وضع النادل الكأس أمامي بحسم :

- تفضل !

بمجرد أن رفعت الكأس ناحية فمي، حتي لمحته هناك !

السيد (ديزموند) بمظهره الأقرب إلى رعاة البقر ، يصب كأساً تلو الآخر و يهز رأسه على إيقاع الموسيقى السريعة التي زادت الأجواء إثارة و جنوناً .

حاولت أن أختبئ، أن أتوارى عن مجال رؤيته، كيف سأفسر له وجودي على هذه الطاولة ؟

لطالما كان يدعوني الرجل لمشاركته السهر و الشرب في هذه الحانة لكني كنت أقابل عرضه برفض عارم . كنت أعدد له الأسباب :

- عليك أن تظل متيقظاً و في كامل وعيك طوال الوقت، الخمر ضار على كافة أجهزة الجسم، لا تهدر نقودك من أجل الكحول !

خيل إلى أنه يراني و أنه يبتسم ساخراً من وجودي، أشحت بوجهي بعيداً عنه، لكني حين عدت لألقي نظرة عليه، لمحته يلوح لي كي يخبرني أنه تعرفني و أن

رذائله انتصرت أخيراً على فضيلتي، خبيث أنت يا (ديزموند)، وغد لعين بملامح بريئة، قاتل متسلسل يرتكب جرائمه بدم بارد ثم يقسم أمام القاضي أنه لا يعرف شيئاً عن ضحاياه !

لا أريد تذكر ما حدث بعد ذلك، أو أنني لا أتذكره بالفعل، كل ما أستطيع أن أستدعيه من ذاكرتي عن تلك الليلة، هو أنني انضممت رسمياً إلى نادي المترنحين!

(10)

في اليوم التالي، جلست على ذلك الكرسي الهزاز في الحديقة، و تطلعت إلى البحيرة التي انسكبت عليها الشمس .

لمحت (سيلين) و هي تجلس على الأرجوحة بالقرب مني، و تترك نفسها للهزات الخفيفة بشرود، ثم تثبت ردائها على جسدها حين تهب النسمات الصباحية التي تكشف عن ساقيها .

كانت تنتظر تفسيراً مني حول حالتي التي عدت بها إلى المنزل بالأمس، لكن نداءً مباغتاً اجتذب كامل انتباهنا :

- السيد آدم ؟؟

ظهر ذلك الموظف على حدود الحديقة و هو يحمل تحت ذراعه ملفاً مكتظاً بالأوراق، قمت من مكاني بقلق و توجهت ناحيته متسائلاً :

- نعم هو أنا .. ما الموضوع ؟

- لدينا أمر بإخلاء هذا المنزل .

- متي ؟

- في خلال 24 ساعة .

كست ملامحي المرارة فتابع الموظف :

- سنمر هنا صباحاً نرجو أن يكون المنزل خالياً و إلا سنضطر لإخلائه بالقوة كما تعلم.

- فهمت .

سمعت (سيلين) ما دار من كلام، ضاقت حدقتاها و هي تسألني :

- ما هذا الذي سمعته .. لماذا يريدون إخلاء المنزل ؟؟

- كان هناك نزاع قانوني قديم على هذا المنزل و تم التقرير بضرورة إخلاؤه لصالح بلدية المدينة، لقد

خدعنا السيد (جون) حين باعه لنا و لم يخبرنا بهذه المشكلات .

- تعلم كل هذا و لم تخبرني !

- و ما الذي ستفيد به معرفتك .. لم أرد أن أقلقك .

- و ماذا سنفعل الآن .

- لا أعرف .. لقد وقعنا في مأزق جاد .

قبل أن أصل إلى الباب الخارجي، هتفت (سيلين) :

- آدم ، بإمكاننا الانتقال إلى رفقة السيد (توماس) و السيدة (إيزابيلا) حتي يتم حل المشكلة العالقة .

- مستحيل .

- و هل أمامنا حلول أخرى ؟ أين سنسكن حين يأتون غداً و يخرجونا من المنزل !

- سيلين، لقد كانوا يعلمون بكل المشاكل التي تعتري هذا المنزل و لم يحذرونا منه، أتدرين لماذا ؟ لأن ذلك الرجل توماس قد وجد أنك جميلة و هو زير نساء .. أنت فقط لا تدركين حقيقته .

- ما الذي تقوله يا عزيزي .. أنهم عائلة لطيفة و لا وجود لما تدعيه .

ثم أشارت بسبابتها اليمني ناحية رأسي و هي تستطرد :

- إلا في خيالاتك فقط .

- يمكن أن ننتقل إلى رفقة والديّ كحل مؤقت .

- آدم .. لن أسافر للعيش في تلك المدينة البعيدة، أنت تعرف هذا، كما أنني تعودت على التواجد بالقرب من أبي و لا أتخيل الحياة بدونه .

- و لماذا أعيش أنا بعيداً عن أهلي يا سيلين، هل تحبين أباك أكثر مني .

- حبيبي .. اهدأ و كن منطقياً، لماذا نثقل على والديك مادام يمكننا أن ننتقل إلى المنزل المجاور حتي حل المشكلة ؟!

- سيلين، لننه هذا الجدل، سأخبرك شيئاً .. لو كان هذا هو آخر بيت في المدينة تأكدي أنني لن أنتقل إليه .. أتسمعيني يا سيلين .. لن أنتقل إلى هناك .. !

قلتها و خرجت قاصداً مكتب القانوني في المدينة، عسى أن يتمكن من القيام بأي إجراء يؤخر تنفيذ القرار .

الفصل الثاني

(رغبات ملعونة)

(11)

في المساء كنت ألملم أغراضي للإقامة اضطراريا رفقة السيدة (إيزابيلا) والسيد الغامض الغريب المستفز (توماس) زوجها حتي إيجاد مخرج للأزمة التي سقطت على رؤوسنا من الفراغ .

أخبرني القانوني أن الشأن جدي و لا سبيل لتأخير تنفيذ القرار في الوقت الحالي، لكنه سيحاول الوصول إلى السيد (جون) بطريقته و الحصول منه على التعويض اللازم .

تفقدت البيت بعيني حتي ظهر (توماس) سعيداً و هو يرحب بنا :

- منزلنا هو منزلكما ، لا أحد هنا غيرنا كما تعرفان فابنتنا الوحيدة تقيم بصحبة أحد أقاربنا بالقرب من

جامعتها.

شكرته (سيلين) شكراً صادقاً :

- هذا لطف كبير منكما .

ثم نظرت لـ (إيزابيلا) مبتسمة و هي تكمل :

- يكفي أنني سأقضي مع صديقتي وقتا أطول .

ابتسمت (إيزابيلا) هي الأخرى و بدت فرحة فعلاً .

وضعنا أشياءنا في الغرفة التي أشارا إليها ثم استلقيت على السرير من التعب لأستجلب النوم، و تأملت مفكراً في السقف العالي الذي كان يحدق فينا هو الآخر كأغراب، كأنه يسألنا بحدة :

- من أنتما و ما الذي أتي بكما إلى هنا ؟!

***

استسلمت (سيلين) لغرقها في أفكار شتي، صحيح أنها تبدو أمام زوجها متماسكة، لم تظهر الجزع الملائم لفقدان المنزل، لكنها كانت حزينة، غائب عنها الارتياح، هي فقط تعودت على إخفاء مشاعرها، لا تريد أن تضع (آدم) تحت ضغط أكبر إن هي تركت همومها الصاخبة ترتسم على ملامحها الهادئة، عليها فقط أن تصمد أمام قلقها الملح و تخبره أن كل شيء سيتحسن .

تذكرت طفولتها .. كانت منطوية، قليلة الكلام، نادرة التذمر، تحب الغناء بصوت خافت، تتخيل أنها تغني أمام حشد من الجمهور، ترى تصفيقهم لها في أحلام يقظتها فتنحني أمامهم تواضعاً، كانت تؤمن أن الرب لم يعط لأحد موهبة بلا داع، لا شيء يحدث مصادفة، و إنما هي منح ربانية يجب الاحتفاء بها ولا ينبغي تجاهلها و إلا عوقب صاحبها بسلبها منه .

كانت تعرف أنها لم تكن يوماً ملفتة للأنظار، لم تكن سؤالاً جدلياً بقدر ما كانت إجابة بسيطة، وحده (آدم) من رأي إشعاع ابتسامتها، وحده من أصابه سحر

عينيها بالأرق و كاد أن يجن حين تخيل لذة السكون الآمن في دفء أحضانها .

تذكرت ليلة اعترافه بهيامه بها، حينها تنهدت و هي تسند رأسها الطفولي المنهك على كتفه القوي، و رأت عالمهما السري آنذاك يفوق الفضاء السرمدي فسحة و تبدو نجومه أكثر ألقاً .

مر على ذاكراتها صور متفرقة لأمها الراحلة التي فارقتها منذ أن كانت صغيرة، خسارة فادحة لحقت بها في سن مبكرة، ذكري مؤلمة تراودها كل حين بشكل بالغ العمق وتضرب بجذورها في كل خلية من خلاياها، غياب الأم يصبغ العالم بلون موحش واغتراب منزوع الأمان .

أدركت أنها مهما حاولت الفرار من أوجاع الماضي فإنها ستظل تطاردها، هل لو التفتت إليها و حدقت بجرأة في عينيها، ستختفي ؟!

لكنها لم تستطع المضي قدماً في استحضار تلك الذكريات، فبمجرد أن لامست روحها هالات الاكتئاب، حتي أخرجت نفسها بسرعة من هجمة الماضي العارمة عليها وتمنت أن يتغير وضعها الحالي في أقرب وقت، لأنها لن تحتمل أن تكون عبئاً على أحد، فالاستضافة إن طالت صارت ثقيلة الظل على الضيف و المستضيف، وفراشة مثلها اعتادت على الرحابة و التحليق لن تعرف الراحة في مساحة شخصية ضيقة على هذا النحو .

***

من المثير أن تعيش مع رجل تتشكك في أمره في بيت واحد، تحدق فيه بشك كل صباح، تحاول أن تقرأ ما في عينيه، و تعتقد أن كل ما يفعله هو خطط خبيثة يجهزها لاصطيادك .

- هيا لنتناول الإفطار في الحديقة .

قالتها السيدة (إيزابيلا) بسعادة فرافقناها إلى الخارج، سألتها متعجباً :

- أين ذهب السيد توماس ؟

- للأسف لن يستطيع أن يشاركنا الطعام فقد خرج لشراء بعض المستلزمات من المدينة .

حدجت (سيلين) بنظرة جانبية، كانت ترمي ببصرها ناحية منزلنا بكل أسى بعد أن خرج عن نطاق ملكيتنا، فأردت أن أخرجها من دوامات حزنها الساحق بأن بالغت أمامها في قدرات القانوني في الوصول إلى (جون) وانتزاع الأموال منه .

لمعت في ذهني فكرة طغت على كل تفكيري، سأذهب إلى (ألبرت) و أطلب منه إقراضي بعضاً من المال يمكنني من استئجار أحد المنازل حتي إيجاد حل للمشكلة، من المؤكد أنه سيقف بجانبي بعد كل تلك السنوات التي عملت فيها لصالحه .

ما شجعني على الذهاب هو معرفتي السابقة بأن حالته المادية على قدر يسمح له بأن يمدني بما أحتاجه خلال تلك المرحلة .

فكرت أيضاً في اللجوء إلى أبي، لكني كنت متأكداً أن وضعه المادي لن يسمح له بإقراضي أية مبالغ هذه الأيام .

حين وصلت إلى منزل السيد (ألبرت) كانت شمس الغروب تهاجر بعيداً عن المدينة، صافحني بود يخفي خلفه تساؤلاته حول سبب زيارتي غير المنوه عنها فبادرته بالتحدث كي أريح فضوله النادر المسن :

- جئتك اليوم أطلب مساعدتك و أتمنى ألا تخيب آمالي .

- أصبتني بالقلق، ماذا بك .

- كما تعلم فقد تم إجلائي من منزلي الجديد بسبب المشاكل القانونية .

- لقد أخبرتك أن هذا المنزل الغريب لا يأتي من خلفه دائماً سوى المشكلات .

- للأسف هذا ما حدث، و لقد فكرت في أن أطلب منك أن تقرضني بعض النقود التي تمكنني من استئجار منزل أقطن فيه حتي يتم التوصل إلى حل لتلك المشكلة .

- أنت تعلم أنني لا أدخر عنك شيئاً يا بني، لكني لا أمتلك السيولة الكافية .

صدمتني عبارته، كيف لا يمتلك السيولة الكافية كما يقول، أهكذا يكافئني على اخلاصي طيلة تلك السنين، ألا أستحق أن يقف بجانبي في محنة كتلك التي تضربني كعاصفة !

(إنه يكذب عليك)

يا للطامة، عاد الصوت يوسوس لي بعد أن استرحت من نبرته المستفزة:

- اخرس .

- ماذا ؟

- لا أحدثك أنت .. أريد أن أقول لك أنه إن كنت قلقاً من ألا أعيد لك ما سأقترضه منك فعليك ألا تقلق، بمجرد أن يتم حل الأمر سأعيد لك كل النقود .

- يبدو أنك لم تفهمني جيداً، أنا حقاً لا أمتلك نقوداً كافية يا آدم، لو كان معي ما تأخرت في إقراضك .

(إنه يسخر منك و لا يعيرك اهتماماً، أنت تدرك تماماً أنه يكذب و يحتال عليك، لا بد أن تعاقبه و أن تنتقم منه، يا له من عجوز ماكر بغيض)

للحق فقد شعرت بالغضب يجتاحني، ضخ قلبي الدماء إلى رأسي مغلية، حدقت في (ألبرت) بعينين ناريتين كشيطان برز لتوه من أعماق الجحيم الموبوءة إلى العالم .

لم أدر بنفسي و أنا أمسك بتلابيبه بقوة و أهزه بعنف ..

قوة جعلت عينيه تبرزان من محجريهما من فرط التفاجؤ والاندهاش :

- هل جننت، ماذا تفعل ؟

- لماذا تعاملني بهذه الطريقة، لماذا لا تريد أن تساعدني، بم ستنفعك نقودك و أنت على أعتاب النزول إلى القبر .

(يا له من أناني، أيدخر كل شيء من أجل ابن أخيه، ألست ابنه انت الآخر كما كان يقول لك دائماً، رجل كاذب و مخادع بهذا الشكل لا يستحق أن يعيش) .

- آدم، ماذا تفعل يا بني، لا أستطيع أن ألتقط أنفاسي .

- و لم تريد أنفاسك، أكل هذا من أجل ابن أخيك، ألا أساوي عندك أي شيء، سأريك ما بإمكاني أن أفعله أيها الوغد .

قلتها و لم أشعر بنفسي و أنا أمسك بتلابيبه بعنف أكبر، كنت أتعرق و كأن الشمس قد تراجعت عن قرارها و عادت لسمائنا حارة كشمس ساطعة وقت الظهيرة .

تغير لون بشرته تدريجياً و كأنه يحتاج إلى الهواء و أنا أزيد من عنفي تجاهه بلا وعي أو إدراك بأي عاقبة .. فقط إصرار على التخلص من شعور الاستهانة بي الذي تجسد على هيئته .

صرخ فيّ :

- ابن أخي أشرف منك .. دعني .. أريد بخاخة الربو الآن .

تركته أخيراً، ثم أفسحت له الطريق ملوحاً بيدي :

- تفضل، فلتحصل على بخاختك اللعينة، و لتعش إلى نهاية القرن أنت و ابن أخيك الشريف .

لكنه بدلاً من التحرك، وقع أرضاً .. !

هل كنت أنا من قتله فعلاً ؟!

سقط منظاره الطبي من على وجهه و هو يتشنج و قد ازرقت بشرته و كأنه أحد القادمين من القارة المفقودة .

تراجعت للخلف مذهولاً و كأنني أراه للوهلة الأولى، انفعلت و ارتبكت و ارتجفت ثم ركضت خارج الحديقة الأمامية مذعوراً، كغزال بائس يطارده فهد .

هل رآني أحد ؟ هل كانت زوجته موجودة بالمنزل ؟ هل كانت تحدق بنا من خلف الزجاج و خافت أن تتدخل، مجموعة من الأسئلة المخيفة هبطت على عقلي دفعة واحدة .

ركبت دراجتي و أسرعت عائداً إلى منزل (توماس)، لحظتها كان الظلام قد بدأ يسدل ستائره على المدينة بينما كانت الظلمة تحكم قبضتها على روحي .

(12)

في حديقة منزلها كانت (إيزابيلا) تجلس بمواجهة (سيلين) تاركة الهواء يدلل شعرها و يهزه بلطف في كل اتجاه .

أمسكت بعقدها المستقر على صدرها و تأملت تلك القلادة التي تحتل نهايته .

فتحتها لتطالع صورة ابنتها و هي مبتسمة بحنان ثم رمت ببصرها نحو الأفق و غلب على عينيها ذلك الحزن الخفي و تلك الشجون المتزاحمة كأنها ترى ما لا يراه غيرها على المدى .

أمسكت بفنجان القهوة بيديها الاثنتين ثم نظرت صامتة إلى (سيلين) و التي سألتها قلقة :

- ماذا بك ؟

بدت مترددة لثوان حتي قررت أن تفصح :

- لم أعد أستطيع الكتمان يا سيلين .

- عم تتحدثين ؟

- توماس زوجي .

بترت عبارتها، فسألتها سيلين متعجبة :

- ماذا بشأنه .. هل أصابه مكروه ؟

- توماس يخونني طوال الوقت يا سيلين .

تراجعت (سيلين) في مقعدها مستنكرة :

- يخونك !

- زوجي يتركني هنا وحيدة و يخرج إلى أحضان عشيقاته كل ليلة، أتدرين ما الذي يعذبني حقاً ؟ عدم البوح، التظاهر أن كل شيء مستقر، تصوري أن رجلاً في الخمسين يعيش كمراهق أهوج .

مطت (سيلين) شفتيها أسفاً و هي تبحث عن كلمات للمواساة :

- كل الرجال هكذا، لا تستسلمين لتعاسات تثقل روحك .

صمتت لدقيقة ثم استطردت :

- و ما الذي يجعلك متأكدة، ألا يمكن أن تكونين واهمة يا عزيزتي .

ارتسمت على شفتي (إيزابيلا) لحظتها نصف ابتسامة ساخرة :

- كنت أتمنى .. حقيقة كنت أتمني أن يكون كل ذلك محض أوهام في مخيلتي يا سيلين.

ارتاحت بظهرها إلى الوراء، شردت بنظرها، و أطلقت زفرة هادئة من صدرها و هي تستحضر ذكريات من ركن كئيب في أعماق ذاكرتها :

- حين تكاثرت شكوكي فيه، قررت تتبعه بدون أن يشعر، كانت ليلة صيفية حارة، كأننا في مدينة يقطعها خط الاستواء، ليلة خطيرة تغيرت حياتي بعدها، أخبرني قبل أن يخرج من الباب أنه بصدد اجتماع عمل في منزل أحد شركاءه، اللعنة .. كيف يظن الرجال أننا لا نميز كذبهم وارتباكهم ؟!

بدت (إيزابيلا) متعبة، فلمست (سيلين) يديها بإشفاق :

- هل أنت بخير .. دعينا نكمل في وقت آخر .

لم يبد على (إيزابيلا) أنها سمعتها و إنما أخرجت سيجارة من جيب معطفها وأشعلتها قبل تستطرد بعينين غاضبتين :

- ارتديت ملابسي و سرت خلفه، رأيته يصل إلى ذلك الملهى الليلي و يدلف إليه، انتظرت بقلب يعتصره الألم، ثم توجهت نحو الباب، أوقفني حارسان و منعاني من الدخول .

أغمضت عينيها و هي تستعيد المشهد في مخيلتها :

- عذراً سيدتي، دخول هذه الحفلة من خلال الدعوات الشخصية فقط .

- زوجي بالداخل، أريد التواصل معه فحسب .

- للأسف لن أتمكن من مساعدتك .

- هل تسمح لي باستخدام دورة المياه .

صمت حينها الحارس و أشار إلى أحد زملائه :

- حسناً رافقها إلى هناك و من ثم أخرجها فوراً .

عندها فتحت عينيها و أكملت حكيها :

- و أنا في طريقي للخروج، لمحته على تلك الطاولة، يحتضن امرأتين نصف عاريتين عن يمينه و عن يساره، كانت أمامه وقتها كأس من الخمر و كان يلعب القمار .

تدخلت (سيلين) في ذلك الموضع من الحكاية مستفهمة :

- هل سألتِه عن كل هذا، هل واجهتِه بما رأيتِ؟ .

- واجهته، لم أخبره بالطبع أنني تتبعته، لكني تشاجرت معه، أتدرين ماذا كان رده؟ .

منحتها (سيلين) نظرات متسائلة كي تكمل عباراتها، فأكملت :

- صفعة على وجهي !

ساد صمت قطعته (إيزابيلا) مرة أخرى :

- صرخ بأنه حر وأنني لست وصية على ما يفعله، و أنه رجل في الخمسينات من عمره و ليس طفلاً كي أُملي عليه ما يجب .

- و ماذا حدث بعد ذلك ؟

- لأكون صادقة معك، لم أعد أذكر عدد الخلافات التي نشبت بيننا في كل ليلة أشتم فيها رائحة الخمر تفوح منه، لكني و للحقيقة مللت كل هذا و كففت عن الاعتراض وعن العتاب و اكتفيت بالألم الصامت و بهذه الحياة الباردة الخالية من أية بهجة حقيقية، حياة زوجية مع إيقاف التنفيذ .

لم تجد (سيلين) ما تقوله لها، لم يعد بإمكانها شيئاً تفعله سوى أن تنهض وتحتضنها بين ضلوعها لتهدئها و لتواسيها عن أوجاعها، بكت (إيزابيلا) يومها على صدرها و انسابت دموعها ساخنة كتلك الليلة التي حكت عنها، حاولت (سيلين) أن تشعرها بأنها ملاذها الآمن، و بوتقة أسرارها الخفية، فلا يمكن لأحد في هذا العالم أن يستوعب مآسي امرأة، مهما كان قريباً منها، إلا امرأة مثلها .

(13)

صباح اليوم التالي ..

- آدم .. استيقظ هناك مصيبة !

- ماذا حدث يا سيلين .

- لقد توفي السيد ألبرت .

- ماذا!! كيف حدث هذا؟ .

- لا أعلم بعد .

- قد يكون قد اختنق بسبب نوبات الربو .

- حبيبي لم يتم تشخيص سبب الوفاة بعد، لماذا تتوقع أن يكون قد مات مختنقاً؟.

- و كيف سيموت إذاً، لا شك أنه قد تعرض لإحدى النوبات الحادة؟.

- ألن تتحرك لحضور الجنازة والتأبين ؟.

- الجنازة ! طبعاً سأحضرها .

آلمني إحساس الذنب، و زلزل الندم كياني، و شعرت في تلك اللحظة على وجه الخصوص أنني لم أعد ذلك الشخص الذي عرفته طيلة عمري .

ارتديت ملابس قاتمة و توجهت حيث مكان الدفن، الشمس في منتصف السماء، والظلال التي تلقيها على الأرض كئيبة ،وقفت بين المُعَزِّين متأثراً و السيد (ألبرت) رفيق العمر يتوجه إلى مثواه الأخير، عرفت أن زوجته كانت مسافرة إلى أحد أقاربها، لكني ملت على أذن الواقف بجانبي و سألته :

- من هذا الواقف أمام القبر .. أهو من أقاربه؟ .

رمقني بنظرة جانبية و هو يجيب بطريقة جاسوس يخشى أن يُكتشف :

- هذا هو (أدريان) ابن أخيه .

أدريان ! هذا هو إذن من تسبب في كل ما حدث !

فأنا لم أكن لأحنق على السيد (ألبرت) إن لم يظهر ..

ها هو يقف أمام القبر بكل هدوء و لا يعلم أنه من تسبب في مقتل عمه، من خلالي !

ما الذي أقوله، هل أصدق ما أتفوه به حقاً ؟

نحن البشر لسنا منصفين، لم نعد نرى نفوسنا على حقيقتها . لقد أصابتنا لعنة الازدواجية في مقتل، و إلا فكيف نرفض في الآخرين كل ما نمارسه بارتياح ؟

لقد صارت أحكامنا على أنفسنا مهتزة و مشوبة بعيب خطير ..

هو أننا الخصم و الحكم !

كان (أدريان) شاباً في أواخر العشرينات، يرتدي بذلة سوداء كاملة، و له شعر لامع مصفف بعناية و ناعم، خفيف من الجانبين، لا يتحدث كثيراً و تبدو عليه أمارات الغرور .

حزنت في نفسي على الخطيئة التي اقترفتها، قلقت من تشخيص الطبيب لسبب الوفاة، توجست أن يتوصل المحققون إلى شيء يقود نحوي، أعترف بأن ذلك عصف بعقلي و أنا واقف بين المشيعين !

كان هناك وقتاً خاصاً لأجل التأبين، تكلم بضعة أشخاص ثم فوجئت باسمي يتردد رناناً :

- السيد (آدم) إن كانت لديك كلمة تود قولها فالمجال مفتوح لك .

تجمدت لحظات أحاول فيها الاستيعاب ثم تحركت مضطرباً و أنا أدور بوجهي في ملامح المحيطين بي و الذين كانوا بدورهم يركزون أعينهم باتجاهي، حاولت أن أبدو هادئاً قدر الإمكان، لا أعلم إن خرجت كلماتي مضطربة كصاحبها :

- لا أعتقد أن الجمل أو العبارات قادرة على وصف فداحة خسارتنا اليوم، لقد عاش هذا الرجل حياة مسالمة، حاز فيها احترام كل من تعايش معه، و كما

أبهجنا جميعاً بوجوده بيننا فإنه يبكينا الآن كما لو أن المدينة بأكملها لم تفرح يوماً، لن أطيل عليكم في هذه اللحظات الصعبة، فكل ما يمكنني قوله هو أنه كان لهذه المدينة أب موقر و هذا الأب قد مات !

لمحت التأثر على وجوة الموجودين، يبدو أنني أبليت حسناً .

بدأت مراسم الدفن فتساءلت : لماذا لا يتحول جسد المتوفى حال مفارقته الحياة إلى رماد متطاير في الهواء، لماذا يظل جسده في عالمنا بعد أن غادره، نقلني تساؤلي إلى سؤال آخر أشد إلحاحاً : هل ينبغي أن أسأل مثل هذه الأسئلة التي لا طائل منها أم أن التساؤلات بطبيعتها متداخلة و لا نهائية، يقود فيها السؤال الواحد إلى ألف سؤال ؟!

بعد انتهاء المراسم، اجتاحتني رغبة في تغيير الأجواء الكئيبة المحيطة بي، اتصلت بـ (أوليفيا) من تليفون قريب لكنها لم ترد فقررت أن أتوجه إلى منزلها .

أمام بابها وقفت مترقباً، إلى أن طالعني وجهها الفاتن متعجباً :

- كيف حالك ؟

- أنا بخير .. فكرت في المرور للاطمئنان عليك .

ابتسمت و هي تفسح لي الطريق :

- تفضل .

دخلت خلفها و كان واضحاً من السكون الذي يخيم أنها وحيدة في المنزل، جلست على طاولة مستطيلة بينما سألتني هي :

- قهوة ؟

اومأت بالموافقة ثم تأملت جسدها و هي تعدها لي، لاحظت نظراتي حين التفتت ووضعت الفنجان أمامي :

- شكراً، هل وجودي يسبب لك أي إزعاج .

- على العكس، وجودك أسعدني .

لمحت لمعة في عينيها و هي تلقي بعبارتها الأخيرة ثم تفرست في ملامحي و جري بيننا حديث أعين صامت لفترة من الوقت تتخلله بعض الابتسامات ذات المغزى و بدا أن كل منا قد أدرك ما يدور في خلد الآخر .

- أوليفيا .

- نعم .

- أريد أن أخبرك أنك جميلة جداً .

(أخبرها أنها مثيرة) همس لي الشيطان بصوت آمر .

صمتت و تراقصت على وجهها شبة ابتسامة، فقررت أن ألقي القنبلة و ليكن ما يكون :

- و مثيرة !

حافظت على نفس تعبير الوجه، قمت مكاني و اقتربت منها حتى تلاقت أنفاسنا الساخنة ثم طبعت

قبلة على خدها الأيسر، انتظرت بعد تلك القبلة شيئاً من اثنين، إما صفعة على خدي أنا الأيمن أو استسلاما للمزيد .

للحق، فقد ترقبت قرراها بلهفة، و تابعت بشغف المداولة التي دارت بين عقلها ورغباتها، و انتظرت .. نطقها بالحكم .

(14)

قامت (أوليفيا) مرتبكة من أمامي و تظاهرت بالانشغال في أعمال المنزل، لكنه عاد يهمس لي بإصرار أكثر :

(قم و طوقها بذراعيك .. الفرصة سانحة أيها الغبي فلا تضيعها بترددك الساذج)

اقتربت حتي ضممتها، فأغمضت عينيها كأنها كانت تنتظر تطويقي لها، فلما وجدتها مستسلمة أغرقتها بالكثير من القبلات التي كانت مؤجلة، أحببت الثلاث حسنات المنثورة على رقبتها المرمرية البيضاء و عشت معها كل ما لمع في مخيلتي منذ أن رأيتها .. للحقيقة لم أكن أتوقع أن تكن ثمراتها الناضجة بهذه اللذة، و أن يكون للوصول كل هذه النشوة العصية على الوصف .

أثارني أكثر موائها و خربشاتها العفوية و انكشاف جانبها الخفي المائع والمناقض لظاهرها الرزين، قطة مخادعة أليفة المظهر، فاجأتني شراستها المباغتة،

جنية تتلوى في الفراغ فتسكرني وتغيبني عن الوعي، لقد أخذني رحيقها إلى شواهق تجاوزت كل الارتفاعات، بساط سحري حملني إلى فضاء بعيد .

بعدما ارتقيت إلى أقصى مؤشرات نشوتي و استرخيت، حاصرتني المخاوف : هل سيعقب غرقي في هذه اللحظات الممتعة الجامحة، طرد قريب من الجنة ؟

سبحت إلى بر الواقع مجدداً و لملمت ملابسي و غادرت .

حاولت أن أنفض شعور اللوم عن روحي، حاولت أن أوقف ضميري عن الضغط على، لكني لم أفلح، فكرت في تلك اللحظة فيما يجري، غمغمت بصوت خفي : خطيئتين بين ليلة و ضحاها يا آدم !

كنت أعرف أيضاً أنها لن تكون المرة الأخيرة، ذلك لأن أخطر ما في الرغبات تجددها !

قطع الشيطان أفكاري في لحظتها و همس لي بصوته العميق :

- و ما الذي جنيته حين كنت ملتزماً بالمبادئ الفارغة، هل وقف بجانبك أحد حين احتجت، هذا العالم لا يعترف إلا بالأقوياء فلا تكن ضعيفاً خانعاً .. !

***

كنت أراقب (توماس) جيداً و أتعامل معه في أضيق الحدود، أعود إلى المنزل فأدخل الغرفة التي خصصت لي أنا و زوجتي و أقضي بها معظم الوقت حتي خروجي في الأوقات اللاحقة .

في منتصف ليل ذلك اليوم، شعرت بالعطش الشديد، لم أجد زجاجات مياه في الغرفة، فقررت النهوض و البحث في المطبخ .

فتحت زجاجة مياه و شرعت في الشرب مستمتعاً بالارتواء، و قبل أن أنتهي سمعت صوت حركة في

الصالة الواسعة، خرجت لأرى هوية ذلك الشخص، فكان (توماس) .

رأيته من خلال الباب الزجاجي الشفاف لمكتبه المنزلي الصغير ، يفتح الخزانة القابعة هناك، و بدا لي أنها تراقبني هي الأخرى و تريد أن تخبره بوجودي .

خرج الرجل بعد لحظات تاركاً باب الخزانة مفتوحاً وتوجه ناحية الحمام، لم يرني أو يشعر بوجودي، كأن خلايا عقله لم تستيقظ جميعها بعد .

اقتربت من المكتب، دققت النظر فرأيت كثيرا من رزم النقود المرتبة في الخزانة كأنها تناديني . اللعنة كيف أقاوم رغبتي في امتلاكها، لا شك أنني أحتاج النقود الآن أكثر من أي وقت مضي، ماذا أفعل الآن أمام هذا الإغراء ؟

(أدخل الآن و اسحب من تلك النقود، لن يستطيع الوغد أن يتشكك فيك لأنه الوحيد الذي يعرف الرقم

السري للخزانة، هذه فرصتك لأن تأخذ شيئاً تستحقه من هذا العالم !)

الشيطان لديه الحق فيما يقول، هذا الرجل لا يستحق كل ما هو فيه .

كل تلك الأفكار لم تستغرق سوى لحظات، لذلك فقد دخلت إلى المكتب و مددت يدي ممسكاً بأربع من رزم النقود المرصوصة، و قبل أن أخبئها في جيوبي ، لمحته يعود .

أعدتهم إلى الخزانة بسرعة واختبأت خلف أحد الكراسي الكبيرة ..

هل شعر بي، هل لمحني خلسة دون أن أدري ؟

كيف سأفسر له تواجدي هنا في هذه الساعة المتأخرة .

كانت الثواني بطيئة و مستفزة في ذات الوقت، كيف انزلقت إلى موقف بهذه الخطورة، كأنني قيدت نفسي

ثم أعطيت له سكيناً حاداً كي يذبحني .

لو أمسك بي هذا الرجل ستكون فضيحة .. سأكون قد سلمت له نفسي بنفسي .

ظللت ساكناً، لكنني لم أستطع السيطرة على أنفاسي المتسارعة و ضربات قلبي الجنونية .

لم أتمالك نفسي إلا حين غادر إلى غرفته و خرجت خلفه مترنحاً، أتصبب من عرق الحيرة و الاضطراب .

***

اتصل بي القانوني عند فترة الظهيرة التالية بحماس :

- لقد عثرت على عنوان للسيد (جون) .

- حقاً، سأكون عندك اليوم .

- سأخبرك بالعنوان حين نتقابل، لكن رجاء يا سيد (آدم)، لا تقدم على أي فعل متهور حتي لا تضيع حقوقنا .

- لا تقلق .

أنهيت الاتصال و عيناي تلمعان، لمحت (توماس) في الحديقة جالساً و بجواره (إيزابيلا) و (سيلين)، فانضممت لهم .

قامت السيدتان و شرعتا في شواء بعض من اللحم الذي حمل الهواء رائحته الشهية إلينا .

سألت توماس :

- لم تخبرني عن حبك للقراءة .. لقد تفاجأت بوجودك يوم حفل التوقيع .

اعتدل في جلسته مصرحاً :

- حسناً كل ما في الأمر أن الكاتب كان صديقي و قد دعاني للحضور، حتي أنني لم أقرأ الرواية حتي الآن، هل يمكنك إخباري بموضوعها ؟

- الفكرة الأساسية التي يتحدث عنها الكتاب بإيجاز هي فكرة الإغواء، و التي كانت حاضرة بقوة في قصة بداية الخلق .

- فكرة جيدة تستحق الكتابة حولها، و أنت .. ألم تفكر في الكتابة ؟

- في الحقيقة أعترف أن لدي بعض الشغف تجاه الكتابة، كما أن لي قراءات متعددة قد تساعدني، قد أفكر يوماً في صياغة بعض الأفكار التي تراودني .

أشار بسبابته نحوي و هو يضع قدماً فوق الأخرى و يخبرني بثقة :

- ستكتب و ستنجح .

رددت عليه بابتسامة باردة :

- أُثَمِّن هذا الإطراء منك .

اعتدل و هو يحدق في وجوهنا بتساؤل :

- هل تابعتم آخر التطورات المتعلقة بوفاة السيد (ألبرت) .

ظللت صامتاً بقلق، لكن (سيلين) سألته :

- ما الجديد ؟

- لدى الطبيب شكوك حول وفاته المفاجئة .

عقبت (إيزابيلا) بدهشة :

- أية شكوك ؟

أكمل (توماس) :

- لا أعلم، فقط سمعت ذلك يتردد فحسب، من المؤكد أنهم لن يفصحوا عن شيء آخر الآن، و لكن يبدو أن الأمر ليس طبيعياً، نأمل أن يتوصلوا إلى حقيقة الامر حقاً في أقرب وقت .. فقد كان الرجل لطيفاً مع الجميع .

ثم التفت ناحيتي :

- أليس كذلك يا عزيزي .. أنت أكثر من تعامل معه بحكم عملكما سوياً .

خرجت كلماتي مضطربة :

- نعم ، نعم .. بالطبع .

لم أستطع السيطرة على اضطرابي، غادرت الجلسة و شرعت في تغيير ملابسي لأبتعد عن هذه الجلسة الخانقة .

وقفت في الشارع لا أدري أين أذهب، لا بد من الحصول على أية نقود إضافية كي أبتعد بزوجتي عن هذا الجحيم الذي أعيش فيه، فأسوأ ما قد يواجه الإنسان هو البقاء مع أشخاص لا يحبهم .

تجولت عسى أن تلمع في مخيلتي أي فكرة، تابعت بعيني المارة، الملصقات على الحوائط، لافتات المحلات، حتي وقعت عيناي على ذلك الإعلان :

(إذا كنت قوياً، إذا أردت جني المزيد من النقود، انضم إلى مسابقة المدينة للملاكمة)

حين قرأت الجملة الثانية، شعرت كأن الإعلان يخاطبني، هذه فرصتي، صحيح أنني لست بارعا في التلاكم ،لكني كنت قد تدربت عليه بعض الوقت في مرحلة الدراسة .

أعترف أنني لست بالمستوى البُدني أو الفني الذي يؤهلني للفوز حتى النهاية .

قررت أن أحاول، فلتذهب هذه المدينة للجحيم، سأخوض هذا التحدي وسأتحصل على تلك النقود اللعينة التي أحتاجها بأي شكل .

سجلت اسمي في دفتر كبير، أخبروني بأنه ستجري قرعة سيتم إبلاغي بعد إجرائها بموعد مباراتي الأولى و اسم خصمي، لا بد أن أستعد، أن أتدرب على تفادي اللكمات و كيفية توجيهها، لن أحتاج إلى اختبار لقوة

تحملي، لأنها قوية بالفعل، فرجل مثلي تحمل بالفعل ما لا يطاق .

***

توجهت إلى القانوني ،لأتابع معه آخر المستجدات بشأن ذلك المخادع المدعو (جون) ، الذي تسبب في كل ما أنا فيه الآن .

وصلت إلى مكتبه و صافحته متحمساً، كان يرتدي بذلته الكاملة المعتادة و يخفض منظاره الطبي قليلاً حين يحدثني، مع تلك الشعيرات البيضاء القليلة التي ظلت متمسكة بجانبي رأسه و لم تغادر كالبقية .

ترتيب الكتب المنمق في مكتبته القانونية خلف ظهره توحي بأن الرجل منظم و دقيق، سألته عن كيفية و صوله إلى (جون)، فرد بابتسامة خفيفة :

- هذا هو عملنا يا سيد (آدم) .. لدينا طرق عديدة و خبرة من طول العمل في هذا المجال .

- إذن فكيف سار الأمر ؟

- في البداية بدأ يراوغني و يردد بأنه لم يكن يعلم بأمر النزاع على الأرض، و أنه قد باعك المنزل بعقود سليمة لكني قطعت عليه الطريق ببعض الأوراق التي تفيد علمه بالنزاع و توقيعه عليها و قرأت عليه ذلك البند الواضح في عقدك الذي يفيد بأن المنزل مبرأ من أية حقوق للغير وخالٍ من أية نزاعات وأن هذه النقطة وحدها كفيلة بتحريك دعوى قضائية ضده .

- هل توصلت معه إلى اتفاق ؟

- نعم .. أنت تعرف أن المنزل لم يصبح تحت ملكية أحد منكما الآن، لذلك اتفقنا أن يعوضك بمبلغ مناسب .

- أتمنى أن يدفع لي في أقرب وقت، لأني لم أعد أحتمل النوم في كل ليلة بين الغرباء .

شكرت الرجل و غادرته راضياً عن جهوده المثمرة، فكرت في المكتبة و هل ستظل مغلقة، لا بد أن أطلب استئناف فتحها حتي تبدو الأمور طبيعية، لا أعرف

خطط ذلك الشاب المدعو (أدريان) بعد، لذا فيجب أن أكون أكثر قرباً كي أعرف كيف وفيم يفكر .

في غمرة بهجتي بالاتفاق الذي عقده القانوني، راودتني صورة (أوليفيا) أكثر جاذبية و أشهى .. لذا فأتمنى أن تكون في منزلها الآن و أن تكون وحيدة.

***

أخذتني خطواتي مرة أخرى باتجاه منزل (أوليفيا)، فملأتني في الطريق بهجة عارمة . كانت تفصلني بضعة أمتار عن الوصول إلى بابها، أدهشني الهطول المفاجئ للأمطار و اشتداد الرياح .

حينها تبدلت رغبتي بشكل غير متوقع، و قررت العودة إلى المنزل و إلى (سيلين)، لا أعرف السبب، أهو تأنيب ضمير ملح قد تغلب على شهواتي، أم أن تدهور الطقس قد أثر على مزاجي و أشعرني بعدم الأمان؟!

كان الظلام قد بدأ يحل على المدينة بالتدريج و كنت أقود بكل قوتي .

و حين وصلت منهكاً .. قابلت (سيلين) بالقرب من المنزل .

بدت كأنها حزينة و منهارة، اندهشت و ركزت على عينيها، لكنها كانت مبتلة تماماً تحت المطر فلم أميز إن كانت تبكي أم لا . ارتمت في حضني فهدأت من روعها متعجباً وسألتها فزعاً عما أصابها بكلمات خرجت بالكاد من بين شفتي:

- سيلين، لماذا تقفين هنا تحت المطر، ماذا بك ؟

أتاني صوت (سيلين) ضعيفاً متهدجاً :

- آدم .

صرخت فيها :

- ماذا بك .. ماذا حدث !

بكت و هي تقول :

- ذلك الوغد .. لقد حاول معي .. لقد حاول ..

- أي وغد ؟ و ماذا فعل ؟

- توماس .. لقد حاول التحرش بي .

صدمتني عبارتها كخروج مفاجئ لطلقة حية من بندقية غير معمرة، و انتفخت عروقي الغاضبة و أنا أسألها :

- و ماذا فعلت ؟

- قاومته و هرولت إلى خارج المنزل .

تصاعد الدم إلى رأسي بشدة و طلبت منها أن تنتظرني :

- ابق هنا حتي أعود إليك .

- لا فلنغادر .. لا تجلب على نفسك المشكلات .

رددت عليها بتصميم :

- المشكلات هي من أتتنا يا سيلين ..

دخلت عبر البوابة و شعلتان من النار تستعران في عينيّ، كأني شيطان المدينة الذي قرر الظهور بهيئته الحقيقية لأول مرة .

دفعت الباب المفتوح بيدي، فقابلتني (إيزابيلا) مرتجفة و بملامح متوسلة :

- اهدأ يا (آدم) .

- اغربي عن وجهي، أين هو .

- لقد غادر منذ قليل من باب خلفي .. أهدأ أرجوك .

- إلى أين ذهب .

- لا أعلم .. صدقني .. أنا أيضاً غاضبة مثلك .

دارت عيناي في المكان، دخلت كل الغرف احترازاً لمخادعة (إيزابيلا) لي، لكنه لم يكن موجوداً بالفعل، تبخر و لم يتبق منه سوى رائحة عطره الكريهة .أدرت

لها ظهري ثم التفت بوجه غاضب متعرق ورفعت سبابتي نحوها و أنا أهدد :

- أخبريه بأنني لن أتركه .

(إلى أين تذهب أيها المتخاذل .. كيف ستنام الليلة إذا لم تقتص من ذلك الوغد؟)

ماذا تريدني أن أفعل أيها الشيطان .. ألا ترى أنه ليس موجودا !

(رد له ما فعله بك)

ماذا تقصد ؟!

(رد له الصاع صاعين .. اغتصب زوجته)

ماذا تقول أيها المعتوه .(صدقني .. مهما فعلت لن تكونا متعادلين.. هذه هي الطريقة الوحيدة للانتقام الحقيقي منه، الدم بالدم و الشرف بالشرف .. هذه

فرصتك كي ترد له ضربته بأخرى قاصمة .. أيها المتخاذل)

اجتاحني السخط أكثر و أكثر و أيقنت أنه على حق، سأرد عليه برد أقوى، كما أن هذه المرأة هي من أثارت المشاكل بيني و بين (سيلين) و هي من شجعتها على الذهاب إلى نادي الفنون .

التفت إلى إيزابيلا مشحوناً بفكرة شيطانية :

- إيزابيلا .. ما سأفعله ليس أمراً شخصياً بيني و بينك .. !

تأملتني بحيرة و هي لا تفهم ما أرمي إليه .

لكنني لم أمهلها كثيراً و بدأت فوراً في التنفيذ .

أمسكت بيديها بقوة و طرحتها على الأرضية الخشبية .. لتبدأ هي في مقاومتي بشراسة بعد أن أدركت ما أنا عازم عليه، لأرد مقاومتها بصفعها عدة مرات .

صرخت بطريقة هيستيرية :

- هل جننت .. توقف .. توقف أيها المجنون .

ثبتُّ قدميها بركبتيّ و سيطرت على ذراعيها و صورة (توماس) تتراءى أمامي و هو يتحرش بزوجتي فتزيدني إصراراً على الاستمرار و تدفعني إلى صفعها بقوة، صفعة تلو الأخرى .

تعرقت بشدة و أنا أجثم عليها، فوران عارم بداخلي يتصاعد بشكل هستيري، كانت تعافر كمن يقاوم الغرق، معركة غير متكافئة بين فهد متوحش و غزال مسكين .

رأيت خيطاً من الدماء ينساب على وجهها، خيطاً اختلط بخيط آخر من الدموع .

أحمّر وجهها، ارتعد جسدها، تهيجت كرامتها، بكت و تألمت ثم صرخت .

صرختها رجتني، أيقظتني، منحتني دفقة استيعاب لجسامة ما أفعله، و لطفت النار المشتعلة في قلبي و

جعلتها تهدأ، هدوء عميق لا أعلم منبعه، مس غير مرئي هداني لأن أتوقف قبل أن أرتكب خطيئة أخرى .

حين نهضت .. لم أستطع النظر في عيني (إيزابيلا)، فقط سمعتها تئن بحرقة، في حين كانت أنفاسي سريعة .

عيوناً أخرى مصدومة واجهتني .. عيون (سيلين) التي تجلت على ملامحها علامات الغضب و الاشمئزاز !

هل تلومني على محاولة استرداد حقها والانتصار لها .. !

أمسكت بيديها كي نغادر، لكنها جذبت يديها من يدي و أطرقت رأسها ثم غادرت مسرعة . هل كان كل ما حدث لي عقاباً على تبادل الحب مع (أوليفيا) في ذلك اليوم الفردوسي ؟!

***

ملأت صورة (آدم) كل مخيلة (أوليفيا)، فكرت فيه ملياً و فيما يريده منها، هل افتقد جسدها، هل ستكفيه تلك الليلة التي امتزجت فيها أنفاسهما الحارقة ؟!

لماذا تورطت في تلك العلاقة، لا تنكر أنه يعجبها، و أنها تراه رجلاً كاملاً، قوي البنية، ذكياً، وسيماً، لكن توقيت ظهوره هو الذي لا يناسبها، التوقيتات هي من تفسد أعظم الأشياء، إنها تفقد أهميتها تماماً حين تأتي في غير أوانها، كملابس ثقيلة تأتيك في ذروة الصيف .

كانت تريد أن تصب كامل تركيزها في هذه المرحلة على الأقل على تحقيق أحلامها، تطلعها لأن تصبح مغنية مشهورة وأن يتسابق الناس للحصول على إمضاء أنيق منها، فتاة مثلها تروقها الأضواء و تشتهيها، فهل هذا توقيت مناسب للحب و الغرام ؟!

راجعت في ذهنها تلك الليلة التي ادعت فيها أنها عالقة على الطريق، رغم تفويتها للسيارات عمداً، كانت تعلم أنها تقف في مسار عودته، و أنه لن يقبل أن

يتركها منكمشة في العراء، احتضنته ليلتها بسعادة و بخبث نسوي، حتي ترنحت مقاومته أمام عينيها و سارت دراجته في مسارات متعرجة طوال الطريق من فرط توتره، لقد غرست في عقله بذرة التفكير فيها، و تركتها لتترعرع و تنمو و تزهر تحت شمس رغباته التي عادت لتشرق بوجودها، العثرة الوحيدة في طريقها معه، هو أن خطتها في تحقيق ما تطمح إليه، لا تتضمن أي أدواراً مهمة له .

(15)

خرجت خلف (سيلين) وأمسكت بيدها كي أوقف اندفاعها الخارج عن السيطرة :

- ماذا بك ؟! ألا يرضيك انتقامي لأجلك ؟

واجهتني بنظرات مشبعة بغضب عارم لم أعتده في عيني زوجتي ثم هتفت بحنق :

- أي انتقام ؟! هل جننت، ما ذنب (إيزابيلا) فيما حدث، لقد قلت لك أنه حاول، لكني لم أسمح له أن يفعل شيئاً، هل هوى أحدهم بشيء ثقيل على رأسك ؟ نعم .. من المؤكد أنك قد أصبحت مخبولاً تماماً .

ثم بدأت تضحك كالمجاذيب فجأة و هي تستطرد :

- لقد أصبحت زوجة المخبول !

- سيلين ..

لم ترد على و انما بدت كأنها ترى آخرين حولي لا أراهم :

- أهلا سيدتي .. سعيدة بمعرفتك .. أعرفك بنفسي .. أنا زوجة الرجل المخبول !

أمسكت برأسها كي تستفيق مما هي فيه :

- سيلين .. استفيقي و اهدئي .. هيا لقد توقف المطر .. سنتحرك الآن و لننزل بأحد الموتيلات بوسط المدينة .

بدت مستسلمة و أنا أوقف سيارة تقلنا إلى مقصدنا و أفتح لها الباب كي تستقر في مقعدها و بدا الظلام الذي يغلف الأنحاء أكثر كآبة و غرابة من ذي قبل .

تحركت السيارة فعادت السماء تمطر على نحو أشد ضراوة، هل أوقفت أمطارها لأنها كانت تتابع ما جرى ..؟!

***

عاد (توماس) إلى منزله آخر الليل حذراً، بعدما اقترف خطيئة قميئة لا تغتفر، كان قلقاً من رد الفعل، فلن يتركه (آدم) دون أن ينتقم، و لن تسامحه زوجته هذه المرة على خيانته الفاضحة التي سكبت على وجهها الخزي والخجل، كيف سيحتوي خائن مثله غضبة زوج ثائر جريح ؟

بحث عن (إيزابيلا) فوجدها جالسة في غرفة المعيشة واجمة، ما زالت في حالة الصدمة التي لم تغادر ملامحها، تفقدها فواجهته آثار جرح في شفتيها، الجرح الذي انسابت منه خيوط من الدماء، اتسعت عيناه و تزلزلت أعماقه، أمسك بكتفها وثنى ركبتيه و حدق في عينيها الثابتتان في الفراغ كأنها لا تراه، أو لا تريد أن تراه :

- إيزابيلا ! ما الذي حدث، من الذي فعل فيك هذا ؟

لا تفاعل مع كلماته، كأن سؤاله لم يخرج من بين شفتيه، فقط دموع بدأت في الظهور على وجنتيها

مباشرة، كرر عليها عبارته لعلها تجيب، صمتت لدقيقة أخرى قبل أن تنطق دون أن تنظر إلى عينيه :

- أنت !!

أجاب مصدوماً :

- أنا ؟! ماذا تقولين ؟

- نعم أنت، هذا ما جنيته من أفعالك، عجيب أنت يا توماس، لا تكترث لنزيف قلبي كل ليلة، و حين رأيت جرحاً بسيطاً على شفتي، أصابك القلق و قتلك التساؤل، هل أنت حزين من أجلي حقاً أم أنك لا تهتم سوى للانتقام لرجولتك ؟

- آدم من فعل بالطبع، عاد و بدلاً من أن يواجهني، تعدى على امرأة ضعيفة لا تقوى على مقاومته، سأجدك يا آدم، سأجدك لو كنت في آخر العالم .

ردت (إيزابيلا) ساخرة :

- ضعيفة ؟ لست ضعيفة يا عزيزي، أنا أقوى مما تتصور، الضعيف هو أنت، أنت من لا يقوى على كبح رغباته و نزواته، أنت من لا يستطيع السيطرة على جموح نفسه، كم أنت هش يا توماس و مستحق للشفقة .

سمع عبارتها الأخيرة و خرج من منزله مفعماً بغضب مجنون، غضب يدفع لارتكاب كل فظائع العالم، خرج و من خلفه بدت نظرات (إيزابيلا) زائغة و محدقة في اللاشيء .

اللاشيء الذي أصبحت حياتها تدور حوله و يملأها بالخواء .

***

ما أن وصلنا إلى الموتيل و استقر بنا الحال في غرفة علوية، حتي انهارت (سيلين) على السرير بتأثير الزكام و التعب، أطفأت الأنوار كي اهيئ لها الأجواء لتنام وتستريح، و استلقيت أنا في حوض استحمام ممتلئ بماء دافئ .

انزلقت حتي غمرت المياه سائر جسدي . كان عقلي يراجع كل ما حدث و يحاكمني، وفي لحظة شرود انتابني شعور لوهلة بأن طحالب خضراء نبتت في الحوض من حولي و أن لبلابا نما بسرعة و التف حول عنقي كحية تخنقني، هل أصدر عقلي الحكم بالإعدام خنقاً حتي الموت ؟!

هززت رأسي فانقشعت المحاكاة و زالت الأوهام، أنا بخير ومازلت قابضاً على زمام الأمور، كل ما أعانيه هو مجرد أثر جانبي سيزول بعودة حياتي إلى أقصى درجات العادية التي كانت فيها .

استيقظت زوجتي في منتصف الليل و كانت تسعل، أحضرت لها مشروباً ساخناً من البابونج فأخذته مني بغير أن تتلاقى أعيننا، كانت تتعامل معي بحرص، لاحظت أنها لا تريدني أن ألمسها، لم أضغط عليها و إنما تركتها تتصرف على حريتها حتى تهدأ المشاعر المضطربة التي خلفتها ليلتنا الشتوية المتقلبة، عادت للاستلقاء، فظننت أنها نامت، لكنها كانت تنظر إلى السقف المظلم و تفكر :

- لعله يبحث عنك الآن !

تحولت ناحيتها بجسدي، كانت عيونها تلمع كمجرتين في فضاء سحيق :

- ماذا تقصدين .. من الذي يبحث عني ؟

- هل توقف عقلك ؟ توماس بالطبع .. لقد تحولت الدفة وأصبح هو الذي يبحث عنك بعد ما فعلته مع زوجته .

- حينها سيكون قد أتى لقدره المحتوم .

- كيف تغيرت على هذا النحو ؟! أتدري أنك تحولت لشخص آخر لا أعرفه، شخص يتحدث بطريقة تنضح بالشر و الأنانية المفرطة .

كنت أدرك أن الرابط النسوي بينها و بين (إيزابيلا) هو ما يجعلها مشمئزة مما فعلت، لا شك أنها قد تخيلت نفسها في ذات موقفها و هذا ما عمق من

غضبها مني، السيدات السويات يتعاملن مع مصاب سيدة واحدة كأنه مصابهن جميعهن .

- سيلين .. أعلم أنك غاضبة مما أقدمت عليه .. و أنا نفسي لم أكن أتصور أن أفعل ما فعلت، لكني أريدك ألا تنسي أن تصرفي كان نتاجاً للنيران التي التهمتني من تصرف ذلك المعتوه معك، و أنني في الأحوال الطبيعية ما كنت سأفكر في أن أمس امرأة غيرك بغرض الشهوة أو بغرض الأذى .

و أنا أتم عبارتي ومضت صورة (أوليفيا) في خيالي و تذكرت لحظاتي في أحضانها، لكني صرفتها سريعاً .. بعد أن أدركت كم أنا كاذب !

داويت جفاف ريقي بكوب من الماء بعد أن عم صمت عميق في الغرفة.

صمت كالرماد الخبيث الذي يخبئ تحته ناراً .

***

خيانات زوجها، اشتياقها لابنتها، خزيها أمام صديقتها و غضبها من صفعات رجلها الثائر، نيران عظيمة كانت تحرق قلب (إيزابيلا)، عواصف كانت تقتلع جذورها من سابع أرض، كأن حياتها بحر غادر يصر على أن يبتلع روحها .

لماذا تعيش معه ؟

كان عليها أن تغادر منذ زمن طويل، أن تنأى بنفسها عن كل تلك الصدمات التي ما زالت تصر أن تتلقاها رغم سابق معرفتها بحتمية وقوعها، كان عليها أن ترحل حين أصبح البقاء جحيماً، لأن هذا هو التعريف المبسط للنجاة .

كارثة هي إن كانت تحتفظ ببعض الحب لإنسان مثله، إنسان لا مبالي، مراهق فاقد للأهلية في سن الخمسين .

و قد يكون بقاؤها نابعا من خوف آخر .

خوف من أن تصل تصدعات فرارها منه إلى حياة ابنتها، تلك التي احتملت من أجلها ما لم تكن تتصوره .

ثم إنها إن قررت حزم حقائبها، فإلى أين ستذهب ؟!

من سيتحمل إقامتها برفقته لأكثر من شهر على أقصى تقدير .

شعرت أنها محاصرة بالبؤس من كل اتجاه، و أنها سجينة أفكارها الكئيبة، و أن باطنها الخفي المشتعل بات قريباً من التدمير الذاتي والانفجار.

***

في الصباح جلست على حافة السرير و قلت بصوت خافت :

لا ريب أن (سيلين) محقة .

من المؤكد أن (توماس) يبحث عني الآن .

لا شك أنه بمجرد أن تلقي (إيزابيلا) على مسامعه كل ما جرى، حتي يجن جنونه ويشرع في البحث عني، ماذا يريد ذلك الرجل بالضبط، من المفترض أننا تعادلنا، أدرك أنني زدت في جرعة الانتقام، لكنه بذلك يريد استكمال المعركة .

حسناً .. كما تريد أيها الوغد .

فكرت، لو أنني في مكانه فأين سأبحث عني ؟

أعتقد أنني كنت لأبحث عن رجل بلا مأوى في الموتيلات المتناثرة في المدينة .

إذن فهي مسألة وقت حتي يكون في طريقة إلى هنا .

ينبغي أن نتحرك الآن إلى مكان لا يتوقع وجودي فيه، سأسبقه بخطوة و سأفوت عليه فرصة العثور علينا .. من أين هبط على حياتنا هذا الكابوس ؟!

أوقظت (سيلين) بهدوء :

- سيلين .. هيا بنا يا حبيبتي .

- إلى أين ؟

- أنت محقة .. لا بد أن نتحرك إلى أي مكان بعيداً عن هنا .. هيا !

خرجنا من الموتيل و فكرت في التوجه إلى منزل السيد (ألبرت) .

حينها ظهرت الحديقة الأمامية للمنزل في مخيلتي و تذكرت رغماً عني ما دار عليها بيني و بينه .

(لم تقتله .. لقد مات مختنقاً حين تهدجت أنفاسه)

اصمت أيها الشيطان ..

كل ما حدث لي كان بسبب نصائحك اللعينة التي ألقت بي إلى الهاوية .

لقد تفوقت على كل المردة والشياطين .

أين أذهب الآن ؟

(هل أنت خائف من توماس لهذه الدرجة .. فلتبق في مكانك و ليفعل أقصى ما يقدر عليه)

لست خائفاً أيها الملعون .

لكني في الحقيقة خائف على (سيلين) مما قد يحدث و من الذكاء ألا أتصادم معه وهو في أوج غضبه، سأختفي عن الأنظار حتي تهدأ الأمور قليلاً ثم لنر ما سيحدث .

كنت أري أن الانسحاب في معركة خاسرة كهذه لا يجب أن يصنف على أنه خوف وجبن و إنما هو عمل حكيم و سيطرة على جموح الاندفاع المهلك و رؤية ثاقبة للتبعات .

تدخل الشيطان بسخرية لاذعة :

(لو كانت لديك تلك الصفات لما وصلت لهذه الحال)

هزتني (سيلين) فاستفقت من شرودي للحظات ثم قمت بعدها لأتصل بالقانوني:

- سيد (آدم) كيف حالك .. لقد جاء اتصالك في الوقت المناسب، لا بد أن أقابلك للضرورة .

- ماذا عندك .. أقلقتني .

- لا بد أن نتقابل .. لدي أخبار هامة تخصك .

- لنا لقاء قريب .

نهضت لأتحرك لكن (سيلين) أمسكت بيدي بشكل مفاجئ فالتفتُّ لها متسائلاً :

- آدم .. سأذهب للإقامة برفقة والدي .

كدت أرد عليها لكنها أشارت بيدها لأتوقف :

- لقد قررت .. لا بد أن نفترق .. قم بحل مشاكلك .. و بعدها سنرى ماذا تخبئ لنا الأيام.

أنهت عبارتها و غادرت .

شعرت وقتها أن كل ما حولي قد تماهى و أصبحت حركته بطيئة، كأن لحظة مغادرتها قد دامت لساعات .

***

تذكرت بطولة الملاكمة فقررت أن أتوجه إلى مقر المسابقة لمعرفة ما أسفرت عنه القرعة .

تأملني ذلك الرجل العابس المطل من خلف مكتب مكتظ بالعديد الأشياء، ثم فتح السجل الكبير ومر بسبابته من الأعلى إلى الأسفل على لائحة طويلة من الأسماء حتى توقف :

- السيد آدم .. ستجري مباراتك مساء الغد!

صدمتني عبارته فرددت بدهشة :

- مساء الغد !! لم يخبرني أحد .

- لقد تم إجراء القرعة و تم الإعلان عنها، أنت من جئت متأخراً .

- و من هو خصمي ؟

- لحظة واحدة .

تتبع نفس الصف الذي يقبع فيه اسمي و حرك سبابته بشكل أفقي من اليسار إلى اليمين إلى أن ألقى بتلك القنبلة اليدوية على مسامعي بكل هدوء :

- رجل يدعى (توماس) .

لحظة، من المؤكد أنه شخص آخر ، إنها صدفة، لماذا فكرت أنه هو، المدينة مليئة بمن يحملون هذا الاسم، و ما المشكلة من التأكد، رميت ببصري إلى خانة العنوان، لكني صعقت حين وجدته نفس العنوان الذي يعيش فيه ابن العاهرة الذي كنت أسكن بجواره .

***

في المساء توجهت إلى القانوني في مكتبه حسب الموعد المتفق عليه :

- لدي فضول لمعرفة ما يجري .

- استرح يا سيدي .. لدي خبران .

- أحدهما جيد والآخر سيء ؟

- كيف عرفت ؟

- لم أسمع عن خبرين جيدين أتيا سوياً من قبل .

- حسناً الخبر الجيد هو أن (جون) سيدفع المبلغ المتفق عليه مقابل عدم ملاحقته قضائياً أو التعرض له شخصياً، لكنه لم يحدد موعد التسليم بعد .

- ممتاز .. و الخبر الآخر !

- علمت من بعض مصادري شيئاً غريباً .. أنت تعلم أن السيد (ألبرت) الذي كنت تعمل معه، لديه ابن أخ .. ذلك الذي يدعى (أدريان) .

لا أعلم لماذا يعتريني القلق حين يذكر اسم ذلك الشاب :

- نعم .. ماذا به ؟

- لقد اتهمك بشكل مباشر في التسبب في وفاة عمه .. هذه معلومة حديثة و سرية عرفتها بطريقتي .

- أنا ؟! توفي الرجل مختنقاً بسبب الربو .. فما علاقتي أنا بالموضوع ؟

- اهدأ و سأخبرك بما يجري .. لقد قال (أدريان) في إفادته أنه حين وصل إلى منزل السيد (ألبرت) رآك منهمكاَ مع عمه في حوار تفوح منه العصبية و يبدو فيه انفعالك ثم شاهد اعتداءك عليه ليقع بعدها الرجل أرضاً .. قال أنك ركضت و لم يستطع اللحاق بك و حين عاد لفحص عمه وجده ميتاً، يبدو أن (أدريان) هذا داهية، لأنه لم يخبر أي مخلوق بشيء مما قاله في الإفادة، و أعتقد أنه لم يظهر لك شيئاً حين تقابلتما في الجنازة .

- الوغد .. لم يظهر أي شيء .

صمتٌ مرعوباً، فنظر القانوني إلى عيني مباشرة و قال بحسم :

- سيد آدم .. أنت في مأزق حقيقي .

فكرت .. لا بد أن أختفي قبل أن يصلني استدعاء رسمي .

سأنتظر حتى أشارك في مباراة الملاكمة و بعدها سأغادر إلى مكان بعيد.

***

فارقت (سيلين) زوجها عند تلك النقطة لا لتتخلى عنه في محنة، لكن لأنها لم تعد تستطيع تحمل تغيراته المستمرة غير المبررة، و لأنه يزداد غرابة بشكل مخيف، كأنها تعيد اكتشافه .

كانت تبحث ملياً في وجهه عن (آدم) الذي تعرفه، و تألفه، لكنه كان شخصاً مغايراً، شخصاً بذلت جهداً

مضاعفاً في تفهم حالته لكنها لم تنجح، كل ما رأته هو إنسان مندفع يتصرف بلا وعي.

ستعود أدراجها إلى رفقة والدها، ستحتويها تلك الغرفة التي يعيش فيها و ستكون أكثر رحابة في عينيها من منزل لا ترتاح فيه، ستحاول إيقاف نزيف روحها الذي تسبب ذلك الخمسيني في انهماره كنهر من الدم القاني، ستحاول نسيان نظرة الخجل والأسف في عيني (إيزابيلا) حين اكتشفت ما فعله زوجها، ستطرد من ذاكرتها قسوة (آدم) و هو يفجر الدماء على وجه صديقتها، ستنفض عن رأسها كل ما كابدته و ستحاول جاهدة الاستشفاء، فهل حقاً ستشفى ؟!

عليها أن تمنح أعصابها دفقة من الراحة و أن تعزل نفسها خارج هذا الوسط المتوتر، فإنسانة مثلها تفضل الحياة الهادئة المفعمة بالحب والاستقرار أما تلك المليئة بالكراهية و المشكلات فكانت لا تناسبها، ستنسحب حتى يعم الهدوء بعودة زوجها سالماً، فالقلق حول موقفه لن يتوقف بداخلها مهما حاولت .

كان يقول لها (آدم) دائماً أن ابتسامتها هي أجمل ما فيها، فماذا سيقول الآن حين يجد أن هذه اللمحة الجمالية قد اختفت .

(16)

قابلت (سيلين) في منزل والدها، لا أعرف إن كانت سعيدة لوجودي لكن فضولها كان واضحاً، كانت تريد أن تعرف خطتي المقبلة .

وضعت أمامي فنجاناً من القهوة و هي تتأملني بطريقة مغايرة، كأنها تتفحصني، تحاول تعريتي والغوص إلى دواخلي، عن أي حقيقة تبحث بهذه اللهفة ؟

عقدت أذرعي على صدري كإجراء دفاعي، فكفت عن محاولتها لسبر أغواري، لن تستشفي أي شيء يا عزيزتي ما دمت لم أقرر الإفصاح عنه، كفى شكاً، كفى صمتاً، سأنهي كل هذا السجال الأخرس بالكلام :

- سيلين، وجدت طريقة لربح بعض النقود قد تمكننا من استئجار منزل في مكان مناسب، في حال نجحت في جلبها .

- أي طريقة ؟

- لقد سجلت اسمي في مسابقة المدينة للملاكمة .

- ملاكمة !! ما الذي تقوله، هل أصابك خلل في عقلك !

- خلل ؟ هل أصبحت مختلاً لأنني أريد أن أنقذ وضعنا الدقيق .

- بل لأنك لا تدرك ما أنت مقبل عليه، كيف سيكون الوضع إن خرجت من هناك بإصابات بالغة ؟

- هل نسيت أنني كنت أتدرب على الملاكمة في مرحلة الدراسة و خضت حينها بعض المواجهات .

- لم أنس، لكن الوضع مختلف و الخصوم مختلفون، هل عرفت من ستواجه في مباراتك الأولى ؟

- سيلين، أعرف أنك لا تريدين أن تسمعي هذا، لكن هناك من تحايل و أدرج اسمه بطريقة ما كي يواجهني في أول مباراة .

- لم أفهم مقصدك، من هذا الشخص ؟

لم أرد و إنما حدقت برهة إلى عينيها حتى فهمت ما أعنيه، فارتقت إلى ملامحها أمارات الدهشة و الغضب و تمتمت بكل ضيق :

- اللعنة .

ثم استطردت بحنق واضح :

- ما الذي يريده هذا الرجل ؟

- يريد أن يحطمني بشكل قانوني .

- توخ الحذر، هذا الرجل مجنون تماماً و لا شك، لا أعرف كيف تحملته إيزابيلا كل تلك السنين !

- لا تقلقي يا سيلين، سأجعله يندم على كل تلك الألاعيب التي ارتكبها للنيل مني وإن كان يريدها دموية .. فليكن .

***

الليلة التالية، توجهت إلى مقر المباراة، تجهزت في غرفة خاصة، ارتديت الزي الرياضي، استرجعت كل خبرتي في الملاكمة، ارتديت قفازات اليدين بكل هدوء رغم الهتاف و الصراخ الذي يشق الآذان بالخارج، استنشقت نفساً عميقاً و خرجت إلى الممر الضيق الذي سيقودني إلى الجحيم . كانت الأضواء في الممر خافتة، و لم تكن مثيلتها في الساحة التي تحتضن الجمهور الصاخب أفضل حالاً .

كنت أتصبب عرقاً، و كان توتري يتلوى بداخلي كأفعى متمردة، غير قادر على إيقافها، سأهدأ فحسب، فالقلق يلتهم الوعي و يستنزف القدرات .

سأستعين بوسيلتي المثلى، التجاهل .

عزلت نفسي عن الأجواء، تقدمت إلى الحلبة الصغيرة، و انتظرت ظهور خصمي، ذلك المسخ المسمى (توماس) .

لم يمر الكثير حتى أطل وجه كريه .

وجه يملأه الحقد و الرغبة في التشفي، و لكن مهلاً ..

من هذا ؟!

هذا ليس (توماس) !

هذا (ستالون) القاتل المأجور !

ببشرته السمراء و قامته الطويلة و جسده الممتلئ، كان الرجل في الأربعينات من عمره، لا أدري إن كانت تلك ملامح وجهه الأصلية التي ولد بها، أم أنها تشوهات لحقت به إثر هجوم وحشي من غوريلا !

متي خرج هذا المرتزق من السجن، و كيف يواجهني على أنه (توماس) جاري .

لا أفهم شيئاً، أشرت للجميع، أريد أن أصرخ، هذا غش، هذا تزوير، هذه مؤامرة، هذا الرجل ينتحل شخصية أخرى، اتسعت عيناي و أنا أحاول الشرح للحكم المتصلب في المنتصف، لكن أحداً لا يعبأ بما أقول، فات وقت الكلام، و حل وقت النزال .

اقترب مني بجرأة و سألني متحدياً :

- لماذا ترتعد، أتشعر بالرهبة، أتفهم هذا لأنك لم تتعود سوى على ضرب النساء، عليك أن تعلم أنه حتى و إن نجوت مني الليلة، فإنني سأقضي عليك خارج هذه الحلبة لا محالة، لقد انتهت صلاحيتك تماما!

كان هذا دليل واضح أن للحثالة المدعو (توماس) يد في الأمر وأنه هو من أرسله، لقد خدعني ذلك الوغد و سقطت أنا في الفخ كفأر ساذج .

لم أرد عليه، ليفاجئني ذلك الوسواس بعبارة ساخرة اقتحم بها المشهد بغتة :

- هل أنت خائف منه حقاً ؟

ثم عاد و ذكرني بضحكته المقززة :

- إذن فهو صادق، أنت خائف منه رغم أنه يكبرك سناً، يا له من عار !

تمتمت بعناد :

- لست خائفاً أيها الشيطان، حسناً، لو كنت خائفاً ما أتيت إلى هنا .

- ماذا تنتظر إذن، ألا تريد أن تهشم أنفه، ألا ترغب في تكسير أسنانه هو و من أرسله، لقد تحرش توماس بزوجتك أيها الأبله و أرسل ذلك الرجل ليجهز عليك لمجرد أنك صفعت زوجته بضع صفعات !

قطع جرس بداية الجولة الأولى، حوارنا غير المسموع، فتأهبت واقتربت منه بكل حذر ، لا أنكر أنني كنت منفعلاً، أحاول أن أركز قدر استطاعتي، هل تراني (سيلين) في هذه اللحظة، لا، لن أنهزم أمامها مهما كانت العواقب ، ضممت قبضتي أمام وجهي و تفاديت لكمة بأعجوبة .

اندهشت من خفته، كيف يكون بهذه الرشاقة في هذا العمر، و كيف يبادر بهذه الجرأة، ضبع أرقط طاعن في السن يأبى أن يخضع أمام خصومه، حاولت أن أوجه

له لكمة محكمة لكنه نجح في تفاديها بسرعة ومن ثم وجه أخرى نحوي، أطاحت بي إلى الخلف !

سمعت ضحكات خفية في أذني، يبدو أن شيطاني مستمتع بما يشاهده .

تتابع السجال بيننا، مناوشات، لكمات، تفاديات، سباب، خيوط دموية منسابة ونهر من العرق يجري على الأرضية .

لقد تفاجأ (ستالون) بصمودي و مجاراتي له .

حتى اقتربنا من نهاية الجولة الثالثة والأخيرة ..

حينها ملأ الغضب كافة عروقي و شعرت بسخونة في جسدي كأني أحترق .

حسناً .. كفى مهاترة، كفى تخاذلاً، كفى تحفظاً .

أيها الشيطان ..

أيها الجمهور ..

سيلين ..

فلتراقبوا جميعاً هذه اللكمة ..

قلتها في نفسي وأنا أتقدم خطوات للأمام و أنقض على (ستالون) بوحشية لم أعهدها في نفسي و لم يعهدها أحد، لكمته بيسراي حتي شعرت أنه يترنح، ثم استجمعت كامل قوتي :

- هذه من أجل زوجتي .

قلتها و سددت لكمة قوية بيمني، لكنها لم تسقطه أرضاً كما توقعت و إنما بقي جامداً لحظات ثم أنقض يكيل لي سيلاً من اللكمات التي قابلتها بذهول ديناصور وقت الانقراض .

فجأة توقف الصوت و لم تعد أذناي تستطيع السماع، شعرت بتماوج الصورة أمامي، فقط وجه (ستالون) الكبير الغاضب المتعرق و يداه تتناوبان تحطيم ملامحي .

سقطت أرضاً .. مصاباً، منهاراً، ضعيفاً، مهزوماً ، مستسلماً .. ثم غاضباً، مقاوماً، عازماً على الثأر ،

ثم سمعت رنين جرس انتهاء الجولة المثيرة .

اهتاج المتفرجون و انفجرت الصيحات و الدم يتفجر من وجهي فيما بدوت عاجزا عن النهوض مجدداً، حتي و لو قام الحكم بالعد إلى الرقم ألف .

و تم إعلان فوزه، و هزيمتي .

- ما رأيك أيها الشيطان ؟

لم يرد .

فداهمتني إغماءة ساد بعدها ظلام طويل .

***

تم نقلي إلى المستشفى ،لكن إصابتي لم تكن بالغة، و أخبرني الطبيب أنني سأتعافى سريعاً .

أتت (سيلين) مهرولة :

- آدم .. هل أنت بخير ؟

- لا تقلقي، كل شيء على ما يرام .

- ألم أحذرك من الذهاب ؟

قالتها و هي تجلس بجوار السرير الذي أرقد عليه .

- ما حدث قد حدث يا سيلين، كيف كنت سأعرف أن رجلاً مثل (ستالون) هو من سينازلني، لقد كانت خدعة خبيثة لم أتوقعها، و قد كدت أن أهزمه، أقسم لك أنني كنت قريباً من القضاء عليه .

- حسناً، توقف عن الكلام و حاول أن ترتاح، لا تفكر في شيء الآن سوى في التعافي والخروج من هنا، أنا أعرف أنك تكره المستشفيات و لا تطيق المكوث فيها .

احتضنت كفها وأنا أرد عليها بكل امتنان :

- شكراً لأنك بجانبي .

ردت مبتسمة :

- قدر حواء هو أن تكون بجوار آدم .

بعد هذه المحادثة بساعات .. خرجت .

أول ما فعلت، هو أنني توجهت إلى القانوني لأتقصى عن دفع (جون) لمبلغ التعويض، و قد فاجأني بأنه قد استلمها منه .. عاينت النقود ثم أعطيته منها النسبة المتفق عليها .

اهتديت بعد ذلك إلى استئجار منزل هادئ في ناحية بعيدة عن صخب المدينة ، أختبئ فيه إلى أن يتم حل الأمور العالقة .. فرجل عنيد مثل (توماس) لم يعد شغله الشاغل أحد سواي و لن يتوقف .. و قضية كتلك التي أخبرني عنها القانوني تعني أن هناك مطاردات في الطريق نحوي، هذا بخلاف ما يلاحقني من وساوس و أفكار .

كان لا بد أن أكون مستعداً لكل الاحتمالات، لذا فقد تمكنت من شراء مسدس من طراز (كولت إم 1911)

بالإضافة إلى ذخيرة كافية، فلقد رأيت أنه ممن الضرورة أن أمتلك سلاحاً أدافع به عن نفسي في ظل الأخطار المحتملة التي قد أتعرض لها .

اتخذت الطريق الذي يقطع المدينة للوصول إلى المنزل الذي كان منزوياً عن بقية التجمعات .

منزل وحيد، حزين، قلق، هل كان كذلك حقاً، أم أنني فقط أضفي ما بداخلي على الأشياء .. !

بمجرد أن دخلت المنزل و ارتميت على الأريكة التي تتوسط الصالة الواسعة، تأملت ذلك الثعلب المحنط على الحائط المقابل، كان يبدو حياً، خاصة مع تحديقه المباشر بي ومع انعكاس نيران المدفأة على عينيه اللامعتين الناريتين و بروز أنيابه التي يستعد لأن يغرزها في عنقي بمجرد أن تغفل عيناي .. لا لن أنام هنا، سأنام في غرفة النوم، هل أصبحت متوجساً من كل شيء حولي إلى هذا الحد !

بعد أن أطفأت الأضواء في الغرفة، تآلفت مع نفسي أكثر، فشعرت لحظتها بالوحدة و الانزواء، كأنني في بيت في آخر العالم لا يعرف بوجوده سوى الشمس التي تطل عليه كل صباح .

لعل العالم بالخارج لم يعد موجوداً، لعلي الآن آخر انسان على وجه الأرض، لعلي بعيد الآن عن آثامي و عن رغباتي و عن مخاوفي و أشباحي و على مسافة تسمح لي بأن أتأملهم و أحدق فيهم و أتعجب من ملامحهم .

غير أنني لم أستطع لحظتها أن أتبرأ منهم أو أن أصرخ بأنهم لا ينتمون إلي، لم أقدر أن أتنصل منهم لأنني كنت متجرداً، و المتجرد محايد لا يعرف التعاطف أو الخداع.

كنت أتمني دائماً لو أنني أستطيع أن أواسي كل الحزانى في هذه الحياة المضطربة، وأن أسامح كل من آذاني يوماً، لكني لا أجد اليوم من يواسيني و غير قادر على مسامحة نفسي .

بشكل مفاجئ و مثير للرعب .. وجدت (توماس) و (أدريان) فوق رأسي من جهتين مختلفتين، على يميني و على يساري و كل منهما يمسك ببندقية يصوبها نحوي، نهضت جالساً يعتريني الفزع لكنهما تبخرا في الهواء كأنهما طيفين ضلا طريقهما من عالم الأطياف إلى عالمي .

ليت كل هذا لم يبدأ .

أفكر ملياً .. أين كانت نقطة التحول التي أطلقت كل هذا الهراء نحوي؟!

كل هذا الزخم من الضغوط المتباينة .

أكانت حين انتقلت إلى المنزل الجديد ؟!

أم حين تم إخراجي منه ؟!

حين تحدث معي ذلك الملعون ؟!

أم حين بدأت أقتنع بما يردده ؟!

لن يشكل هذا فارقاً الآن فكل الطرق أوصلتني إلى هذه النقطة التي تتحفز سبابتي فيها للضغط على زناد السلاح في أي وقت .

مرت أيامٌ على هذه الحال ..

واظبت فيها على الطهارة والصلاة، لترتاح نفسي لتلك الدفقة الإيمانية و تهدأ كأنها تعرفت على هويتها الغائبة .

كانت تأتيني خلال تلك الأيام المملة الطويلة، بضعة اتصالات قليلة من (سيلين) كما أوصيتها في اتصالي الأول، و كان اتصالاً واحداً من بينها فارقاً .

ردَّت (سيلين) خلال التليفون :

- يبدو أن الغرائب لن تنتهي في هذه المدينة .

- ما الذي حدث ؟

- توماس .. سيتزوج !

- سيتزوج ؟! .. ممن ؟

- تلك الشابة التي تغني .

آلمتني معدتي مع عبارتها و تصاعدت ضربات قلبي :

- أي شابة ؟

- تلك الفتاة التي تدعى (أوليفيا) .

تجمدت في مكاني و أنهيت المكالمة منهاراً على الأريكة و مذهولاً .

لم أكن أتحرك أو أرمش ..

كبوذي يمارس اليوجا فوق جبال التبت !

***

بعدما استقرت مؤشراتي الحيوية، فكرت بعمق .. من الواضح أن (توماس) قد أقدم على هذه الخطوة كي يجبرني على الظهور ، مع هذا كان هناك شيئان لم

أفهمهما : كيف عرف الرجل بعلاقتي بـ (أوليفيا) و كيف وافقت هي على هذه الزيجة!

لن أبقى هنا معزولاً عما يحدث بالخارج .

سأتحرك كي أفهم .

اتصلت بها و طلبت مقابلتها لسبب ضروري، كانت تعلم السبب بالتأكيد !

اتفقت معي أن نتقابل في أحد الشوارع التي أعرفها، و في موعد قريب.

ارتديت معطف ثقيل بلون الليل ذا ياقة منتصبة و فوقه قبعة غطت رأسي و جبهتي وجزءا من عيني، فساهمت في إبقاء ملامحي مختفية، تحركت بمظهري الغامض وكأنني البطل المقتص الذي يسعى لتحقيق العدالة في المدينة .

مشيت حتى وصلت إلى الشارع الجانبي الذي حددته لي والذي لم يصله كثيرٌ من أشعة الشمس وقتها ..

لمحتها حين وصلت فناديت عليها :

- أوليفيا ..

- آدم .. ها أنا ذا .. ماذا تريد ؟

- أريد أن أفهم ما الذي يحدث ؟

أطرقت رأسها أرضاً و هي تتنهد :

- ما الذي تريد فهمه .. زواجي بـــــــ (توماس) ؟

- و هل هناك شيء آخر .

- من الأفضل أن تكون مختبئاً الآن بعدما فعلته بزوجته، لا أن تفتش خلفه !

- كيف عرف بما بيننا ؟!

- إيزابيلا أخبرته .

سألتها بنفاد صبر وأنا أقف على حافة الجنون :

- و كيف عرفت إيزابيلا ؟

- بعد مساعدة توماس لي في الغناء بنادي الفنون، قدمني في إحدى الليالي إلى زوجته إيزابيلا، ثم صرنا بعدها أصدقاء، و بمرور الأيام توطدت علاقتنا، لذا فقد حكيت لها عن بعض الأشياء التي تخصني و من بينها أنت .. و للحق فقد طلبت مني الابتعاد عنك، لأنها خافت على زوجتك سيلين .

- و لماذا أفضت إيزابيلا بسرك هذا إلى توماس ؟

- أعتقد أنها خافت أن يقيم زوجها علاقة معي، فرغبت أن تخبره أنني بالفعل في علاقة مع شخص آخر، حتي تقطع عليه الطريق .

- أتدركين أن رغبة توماس في الزواج منك، هي في حقيقتها رغبة في الانتقام مني ؟

- لم تعنيني دوافعه كثيراً .. أهتم فقط بما سأبلغه معه .

لم أكن أصدق ما أسمع حتى أطلقت زفرة حارة و هي تنظر إلى عيني نظرتها المباشرة وتواصل :

- سأتحدث معك بصراحة .. هناك يا عزيزي في هذا العالم نوعان من الناس، نوع حالم يفضل السير في طريق الحب و الأمنيات، يختار الانسياق خلف مشاعره ويمني النفس بأن الغد سيأتي على حال أفضل إلى أن يكتشف في النهاية أنه كان ساذجاً وأنه كان يسعى دائماً خلف السراب.. و نوع آخر يختار الأمر الواقع و يغلب المنطق، يبحث عما سيحقق له ما يريد و يتمناه بعيداً عن أية عواطف زائفة لن يأتي من خلفها سوى معاناة مستمرة .. لقد اخترت الطريق الأقصر و فضلت الواقع على الخيال .. لأن تطلعات الحمقى لا تتحقق و لا تتجسد أبداً .. أحلام الحمقى تظل أحلاما.. !

سألتها مصدوماً :

- و ما الذي سيقدمه لك توماس ؟!

- سيمنحني فرصة الغناء في مركز الفنون الرئيسي بالعاصمة و قد وعدني بالتفاهم مع شركة إنتاج موسيقي لإصدار ألبوم غنائي خاص بي .. لا أريدك أن تتأملني كخائنة، تفهم ما قلته لك و تأملني كفتاة مسكينة لا تريد سوى تحقيق ذاتها و الوصول إلى أحلامها .

قلت ساخراً :

- مسكينة جداً أنت يا أوليفيا، كلكم مساكين و أنا وحدي الشيطان .

انفعلت هذه المرة و هي تهتف :

- هل تعتقد أنها ليست تضحية، أتتصور أنني سعيدة بذلك، أنت لا تفهم شيئاً و لن تفهم !

- و ماذا عن زوجته، أترضين أن تتزوجي بزوج صديقتك؟ .

- إيزابيلا ؟ لقد رحلت بعد أن انفصل عنها توماس بسبب الخلافات التي تصاعدت بينهما .. لقد كانت تكرهه بسبب شكها الدائم فيه .. لا أعتقد أن أحداً يعلم مكانها الآن .. فقد أتت من بلد بعيد كما عرفت .

ثم التفتت إلي و قالت بتضرع و حنان :

- آدم، أعلم أن علاقتنا لم تطل، لكنك هنا في قلبي، أريدك أن تسامحني.

لا أعلم ما الذي دفعها لفعل ما فعلته في تلك اللحظة الاستثنائية الغريبة، فقد نظرت إلى أعماق عيني و اقتربت مني حتى اختلطت أنفاسنا و صارت نفساً واحداً، لحظة هادئة مرت تلتها لحظات حارة تلاحمت فيها شفاهنا المتضورة جوعاً لقبلة دافئة .

لا أعرف كيف انتابني - في هذا الوضع - شعور بأننا مراقبين، التفت إلى جانبي فرأيت آخر شخص كنت أتوقع رؤيته في هذا التوقيت، أو على نحو أدق، آخر شخص كنت أود رؤيته :

- سيلين !

ظهرت تلك الغمامة التي تشبه الحوت فوقنا فازداد الجو قتامة، حين كانت (سيلين) أمامي مصدومة و عيونها دامعة، ها هي مصيبة أخرى تقع، كيف ترتبت هذه الصدفة البائسة على هذا النحو !

على عكس ما تمنيت، لم تنطق بكلمة .

كنت أريدها أن تصرخ في، أن تنهرني، أن تعاقبني على ما فعلت، لكنها ظلت صامتة وثابتة إلى أن غادرت الشارع مسرعة، ناديت عليها يائساً لكنها اختفت في زحام المدينة الذي ابتلعها بهدوء دون أن يعبأ بكل ما يجول في روحي من صراع .

- سيلين ..

ناديت عليها رغم أنها غادرت، لن أحتمل خسارة أخرى بحجم فقدانها، فقد كانت دائماً ملاذي الأخير و كانت هي الليل حين تنهكني شمس النهار .. !

- سيلين ؟!

لا رد .. لم تعد، صدى صوتي فقط هو من عاد إلي !

استدرت متوجهاً إلى (أوليفيا) التي كانت قد رحلت هي الأخرى، لأبقى وحدي في المكان كأن شيئاً لم يؤنسني في حياتي يوماً .

عدلت من وضع القبعة و خبأت رأسي بداخلها أكثر و احتضنت نفسي من البرد، تأملت تلك الغمامة التي لا تريد أن تتحرك، و ابتسمت بسخرية لأنها هي الوحيدة التي لم تقرر أن ترحل .

(17)

لم أكد أصل إلى نهاية الشارع ..

حتى فوجئت برجلي شرطة يظهران في المكان، برفقة (توماس) و(أدريان)، هتف أحد الشرطيان :

- سيد آدم .. أنت موقوف لاتهامك في قضية قتل السيد ألبرت !

لم أقدر على استيعاب ما يحدث، أصابني الذهول .. صُدمت و تراجعت و لم أشعر بنفسي إلا و أنا أخرج مسدساً فاجأ الجميع، كنت قد أخفيته بملابسي قبل أن أخرج من المنزل، و أتحرك سريعاً بخفة متخذاً من أحد الحوائط القريبة مني ساتراً أختبئ خلفه، ليتخذ الشرطيان هما الآخران ساترا مماثلاً و يرفعا سلاحيهما ناحيتي ويختبئ البقية، ليسود صمت حذر مشبع بالتوتر و مفعم بالترقب و الخطر .

كسر (أدريان) حاجز الصمت :

- لا تحاول المقاومة، كل الأدلة تشير إليك ، استسلم لقدرك و عقابك .

و تدخل (توماس) ساخراً :

- أين كنت يا عزيزي، فأنا أبحث عنك منذ فترة كي نتناقش فيما حدث، حسناً يبدو أنك في حالة مزاجية لا تسمح بالنقاش .. أما أنا فبمجرد أن تواردت لي الأخبار بتورطك في عملية القتل تلك، وضعت يدي في يد السيد (أدريان) على الفور كي نعثر عليك في أقرب وقت .. أنت تعلم أن العالم لن يكون مكاناً آمناً إن تركنا القتلة يحومون في الأرجاء هنا و هناك .

كنت أكاد أنفجر من الغيظ من سذاجتي و سهولة انخداعي، و يبدو أنه قد فطن إلى ما أفكر فيه، لذا فقد واصل حديثه اللاذع :

- أوليفيا ؟! لا أريدك أن تغضب منها لاستدراجك إلى هنا، الفتاة لم تكن تعلم أنني أراقب تحركاتها، لقد كانت مجرد الطعم الذي ألقيته لك، و لقد فعلت عين

الصواب حين فتحت فمك لالتقامه، أنا على العكس منك أرى أنها جديرة بالشكر والثناء، لأنها ساعدت دون أن تدري في تقديم قاتل مثلك للعدالة .. المسكينة كانت تعتقد أنني سأتزوجها فعلاً .

صمت قليلاً كأنه يقوم بتعمير سلاحه الذي يرميني به، ثم أطلق رصاصة قاتلة :

- كان من السذاجة أيضاً أن تعتقد أن زوجتك مرت من هنا على سبيل المصادفة.

هتف أحد الشرطيان :

- سيد آدم .. قم بتسليم نفسك .. ما تفعله سيضر بموقفك كثيراً .. أنصحك أن تخرج الآن .

لم أعر تحذيره أي اهتمام، اتخذت قراري بالفرار، بالركض بأقصى ما أستطيع، كأني أركض من طوفان قادم نحوي، كأن اليوم هو آخر يوم في حياتي .

كانت الغيمة قد اختفت، حين أخرجت مسدسي و جعلته في وضع الإطلاق، اللعنة .. ما الذي أفعله، هل سأقتل للمرة الثانية ؟؟

خرجت من مكمني و عبرت كالبرق إلى ذلك الشارع الرفيع في الجهة المقابلة، ضغطت على عضلات جسدي و ركضت مبتعداً و بمرور الوقت شعرت أكثر بتوتر قبضتي التي تمسك بالسلاح .

سمعت صوت طلقات خلفي في الهواء، لكني لم أنظر خلفي و لم أتوقف أبداً .

انحرفت يميناً و يساراً، شعرت أنني تائه و أنه لا فائدة مما أفعله و أنني قريب من السقوط و الانهيار، لكني لم أنظر خلفي و لم أتوقف أبداً .

كنت أعلم أن من يتوقف ليلتفت خلفه كي يتأمل مطارديه، لا يوجد أي شك في خسارته .. !

حين وصلت إلى الشارع الرئيسي الكبير، أخفيت مسدسي و أوقفت سيارة و قفزت بداخلها، و في

اللحظة التي تحركت فيها عجلاتها، كان الشرطيان قد وصلا إلى الموضع الذي ركبتها منه .

كانت اللحظات بطيئة حين نظرت عبر الزجاج الخلفي إليهما و هما يشعران بخيبة الأمل من فراري منهما، طلبت من السائق المتوتر أن يسرع، قبل أن تنضم إليهما أية دوريات أخرى قريبة .

لم يعرفا أنني لم أكن أريد أن أفر منهما فحسب و إنما أريد الفرار من كل شيء في حياتي، كل شيء .

حين وصلت إلى شارع جديد، لمحت (أوليفيا) مرة أخرى، ترددت بين التوقف و بين الإسراع في الهرب، لكنني ضغطت على أسناني و أنا أطلب من السائق التوقف للحظات :

- أوليفيا ..

قلتها من نافذة السيارة و لم تكن منتبهة لوجودي في البداية، لكنها واجهتني بدموع سوداء مختلطة بكحل عينيها حين ناديتها و صدمتني بصوتها المنكسر :

- لقد سمعت كل شيء، لا أمل أبداً لمن هم مثلي.

رجوتها و أنا أتطلع إلى الخلف خوفاً :

- أوليفيا، اركبي معي .

ردت بابتسامة حزينة و ساخرة :

- ألم أقل لك أن أحلام الحمقى تظل أحلاما .

- أوليفيا !!

- عليك أن تعرف أنني أحببتك حقاً .. سأرحل فوراً من هنا، و لن يراني أحد بعد الآن .. أعتذر إليك للمرة الأخيرة .

لم يعد بإمكاني الانتظار أكثر، طلبت من السائق التحرك بسرعة، و عيني تراقبها وهي تذوب في زحام العالم، و في مجرى الزمن .

***

وصلتني الأخبار في مخبئي على مدار أيام طويلة حول مسألة وفاة (ألبرت)، عرفت أن المحققين مقتنعون باتهام المدعو (أدريان) و أنني مطلوب بشدة للتحقيق، هذا يفسر مطاردة الشرطيين لي، هل تثبّت اقتناعهم هذا بهروبي المثير ؟!

أصبحت إذاً متهماً رسمياً في جريمة قتل، هارب قد يقع في أية لحظة في قبضة العدالة .

مرت الأيام بعد ذلك متشابهة، تتخللها الكوابيس البشعة، تارة أرى أنني أفتح الباب فأجد الشرطيين في وجهي، و تارة أحلم أنني في سجن مظلم أنتظر تنفيذ حكم الإعدام !

(هل ستجلس هكذا مكتوف الأيدي)

اخرس .. دعني و شأني ..

ابتعد عني ..

اذهب إلى الجحيم .. فأنا لن أستمع إليك بعد الآن .

كنت أعلم أن باب المصائب إذا انفتح فإنه لا ينغلق، لكنني و للحقيقة لن أدعي أنني كنت أتوقع ما حدث بعد ذلك، فقد كان الخبر الذي قرأته في الجريدة المحلية ذلك اليوم خبراً مفجعاً لم يتخيله أحد !

***

لم يكن ذلك الخبر سوى مقتل (توماس) !!

هل تداعى كل شيء ؟!

ما كل هذه الفوضى التي تحيط بي، و ما كل هذا الاضطراب الذي أحدثته تصرفاتي ؟!

و أين ذهب ذلك الصوت الذي كان يوجهني كل حين .

أين ذهبت أيها الملعون ؟ أين ذهبت نصائحك و كلماتك ؟

صفعني صمت تام كأنني في فضاء .. و لماذا يرد و هو لم يجبرني على شيء ؟!

كيف طاوعتني نفسي على إيذاء السيد (ألبرت) إلى هذا الحد ؟

كيف تعمى أبصارنا في لحظات فارقة تصنع قدرنا إلى الأبد !

مات اثنان حتى الآن، لدوافع مختلفة و قد يتبعهما المزيد .

من الذي قتل (توماس) و ماذا كانت دوافعه ؟!

لا شك أنه يستحق العقاب، لاتسامه بالأنانية و المخادعة و التصرف الفاحش مع النساء ..

مهلاً ألم أفعل الشيء نفسه ؟!

و لأكن صريحاً، لم يكن يعنيني كثيراً موت ذلك الرجل الغريب، مجرد خصم تم إقصاؤه من المعادلة، كل ما أركز عليه حالياً هو ما أنا فيه .. فلا شك أن الوصول إلى موقع اختبائي هو مسألة وقت .

كي أهدئ من روع نفسي .. أمسكت بذلك الكتاب السماوي بجواري كغريق يتعلق بطوق إنقاذ أخير، اخترت أحد النصوص التي ترتاح لها روحي، و شرعت أقرأ فيه خاشعاً و متجرداً من كل ماديات هذا الكون .

مع كل كلمة .. كانت تسلل إلى قلبي سكينة محببة و تغزوني بلطف، كأني مستلق فوق سطح بحري متأملاً رحابة السماء .

***

كم أحتاجك يا أبي بجواري، أحتاج يدك يا أمي لتربت على كتفي و تخبرني أن كل شيء سوف يمضي إلى الخير، أشتاق لكما، و سأزوركما فور انتهاء المحنة، إن انتهت .. لماذا أتيتما بي إلى هذه الحياة دون أن تأخذا رأيي؟!

أنا لست مفصوماً يا أمي حين تزوجت، فأنا لم أكرر خطأكما بالإنجاب، أنا فقط رغبت في الزواج لأنني كرجل طبيعي أحب النساء، و أود أن أعيش حياتي رفقة حبيبة تؤنسني و تشاركني ما أهواه، يقولون أن

الأم تشعر بابنها حتي و إن كانت بعيدة، فهل يساورك حولي القلق يا أمي و من أجلي تصلين ؟

(18)

ليال طويلة بعد ذلك مرت .

غادرتني فيها كل الآمال في النجاة ..

و شعرت باليأس في الخلاص .

لكن الأيام التي تلتها هي التي اختلفت، فقد بدأت أنوار فجرية تبدد في القتامة الجاثمة على صدري رويداً .

تصفع الحياة في وجوهنا جميع الأبواب في وقت واحد، حتى نظن أنها ستوصد للأبد، لكنها تعود في لحظة فارقة لتفتحها جميعاً على مصراعيها و في نفس اللحظة .

طالعت في الجريدة ذلك العنوان غير مصدق ..

" براءة السيد آدم من قضية القتل المتهم فيها "

هل تم تبرئتي حقاً أم أنها جزرة يلوحون بها كي أخرج إلى المصيدة ؟

و كيف أكون بريئاً و أنا متأكد من أنني السبب في موت (ألبرت) !

كان لا بد أن أتحدث مع القانوني .

أدرت قرص التليفون و اتصلت بالرجل الذي صار صوته مرحاً حين عرف أنني المتصل و شرح لي كل شيء .

- أنت بريء تماماً .. تستطيع الظهور الآن .. أنت حر !

- لا أصدق .. أريد أن أعرف كيف تمت تبرئتي ؟

- تم اثبات أن السيد ألبرت لم يمت بسببك !

- كيف ؟!

- لقد ظهر فجأة أحد جيران السيد ألبرت برواية مغايرة و مثيرة للغاية!

ابتلعت ريقي بصعوبة و أنا أستمع إليه بكل اهتمام و هو يواصل :

- ما قاله ذلك الجار، أن لديه نافذة تطل على إحدى غرف منزل السيد ألبرت ذات الشباك الكبير و أنه رأى من خلالها ألبرت و هو يدخل الغرفة بصعوبة شديدة باحثاً عن شيء ما، و الذي اتضح فيما بعد أنها البخاخة الصغيرة الخاصة به، حين وصل إليها قبله ذلك المدعو أدريان .

- أدريان وصل و عمه على قيد الحياة ؟!

- نعم، حين وصل أدريان إلى المنزل في هذا التوقيت، و حين وجد عمه على هذه الحالة، أمسك حينها بتلك البخاخة، و أخفاها من أمام عمه الذي لم يكن يصدق ما يحدث، لينهار بعدها أرضاً و يرجوه أن ينقذه قبل أن يسقط ميتاً .

- و لماذا فعل هذا ؟!

- كي يرثه. من حسن حظك أن ذلك الجار دعم شهادته بصورة فوتوغرافية فريدة التقطها بتلك الكاميرا التي تدعى براوني، يظهر فيه أدريان واقفاً بينما كان عمه على الأرض يمسك بقدمه بصعوبة كي يستجديه لينقذه، من حسن حظك أن ذلك الجار كان موجوداً في تلك اللحظة الفارقة، و إلا لكنت الآن في موقف آخر تماماً .

انسكب على قلبي ارتياحٌ لم أكن أتخيله، كأن الدنيا قد أشرقت في وجهي فجأة، أنا لم أقتل ألبرت، لقد نهض الرجل بعدما تركته و كان سيعيش لولا ما قام به ابن أخيه الخائن .. أنا لست قاتلاً بعد الآن .. أنا بريء !

- و لماذا تأخروا في كشف الحقيقة .

- احتاج الجار وقتاً حتى يتم معالجة الصورة و طبعها، لقد تأخر في تقديم شهادته إلى حين جاهزية الدليل الذي سيدعمها، كما أن تلك الإجراءات القضائية تتطلب وقتاً .. لقد قمت أيضاً بتسوية كل المشكلات القانونية التي تخص هذه القضية، وخرجنا منها بأقل الأضرار،

فرفعك للسلاح في وجه الشرطيين لم يكن بالأمر السهل، لكن عقابك عليه جاء من حسن حظك مع إيقاف التنفيذ مراعاة لظروف القضية .

- و ما الذي حدث في قضية توماس ؟

- تم القبض على المتهم .

- من ؟

- إيزابيلا !

- إيزابيلا ؟! لا أصدق .. كيف قتلته ؟

- تظاهرت برغبتها في العودة إليه، و توافقا على الصلح، لكنها كانت لحظتها في طور إعداد الخطة، وضعت له الزرنيخ في الطعام حتي قضت عليه و هربت، لكن المحققين توصلوا إليها فيما بعد، و أحكموا الخناق حولها بوابل من الأسئلة، فانهارت خلال تقديم إفادتها و اعترفت بكل شيء .

قلت لنفسي : اللعنة هل من الممكن أن تفعل (سيلين) هذا بي ؟!

كانت نهاية مأساوية لـ (إيزابيلا) و (توماس) ،تدعو للشفقة رغم كل ما جرى.

سألت سعياً لتأكيد جديد :

- إذاً فأنا بريء تماماً .

- نعم .

قررت أخيراً الخروج من مخبأي، فالقضية قد سقطت و (توماس) قد مات، لملمت كل أشيائي و غادرت .

كانت شمس الصباح بازغة حين قمت باستقلال سيارة توصيل خاصة.

كان السائق مرتاحاً في مقعده، هادئا على نحو زائد، يمسك بالمقود بتراخٍ و يدخن وهو يحدق بثبات إلى الطريق أمامه بقدر بالغ من الروتين و اللامبالاة .

حتى أنني وددت أن أتأكد من مدى وعيه و إدراكه للوجود .

صرفت انتباهي عن بلاهته و عن سيجارته التي لا تنقضي باحتفالي الروحي بانفكاك الحصار عني، تحديت ملل الطريق ببهجتي الوليدة، محلقاً بآمالي في حياة أخرى مضيئة .

***

نفثت (إيزابيلا) دخان سيجارتها بتوتر و الدموع تسيل من عينيها، لا تستطيع السيطرة على رعشة جسدها، تحتضن نفسها كي تخفف من البرودة التي احتلت خلاياها، عصفور جريح ينزف على قارعة الطريق المغطى بالثلوج، عصفور قاتل في مهب الحياة .

لم يكن أمامها إلا الانفجار، كانت المرارة تعتصرها و الكآبة تحكم قبضتها على عنقها بلا إفلات، حياتها تزوي في عينيها و تحتضر، و حين وضعت يديها على سبب كل هذا، لم يكن هناك أي مفر من القضاء عليه،

لقد آمنت في لحظة حرجة بأن قتل (توماس) لم يكن اختياراً، و إنما ضرورة قصوى أملتها الظروف.

لم يعد يعنيها الآن سوى ابنتها (ليا)، تلك الفتاة البائسة التي قتلت أمها أباها وفقدت كليهما، كيف ستحكم فتاتها عليها حين تعرف الحقيقة، هل ستقسو في حكمها، أم أنها ستتفهم الدوافع التي وقفت خلف فعلتها، ليتها تعلم أن أباها هو من سمم حياتهما أولاً قبل أن تضع له هي السم في الطعام .

- سيدة (إيزابيلا)، انتهت التحقيقات .

قالها المحقق و هو يحجم حركة يديها بقيد حديدي ثم أشار ناحية الباب:

- من هنا من فضلك .

غادرت الغرفة إلى الممر، لتقع عيناها على ذلك المدعو (أدريان) يمر بجانبها هو الآخر مقيد اليدين بإحكام، كانت قد علمت بما اقترفه في حق عمه، لكنها لم تفهم تعبيرات وجهه اللا مبالية .

مروره السريع بجانبها جعلها تتساءل في لحظة مشبعة بمرارة ساخرة :

كيف يساوي القانون بين دوافع جريمتها و دوافعه ؟!

***

الفصل الثالث

(تساؤلات محتومة)

(19)

في أطراف المدينة صحاري شاسعة .

وصلنا إلى منتصف الطريق الذي يقطعها ثم انحرف السائق إلى طريق فرعي فسألته :

- لماذا اتخذنا هذا الطريق ؟

رد بغير أن يحيد عن تحديقه الثابت :

- لأنه مختصر، سنصل أسرع من الطريق المعتاد .

مطتُّ شفتيِّ و لم أعلق .

كنا نتوغل في الطريق بكل براءة، ذلك لأننا لم نكن نعرف ما سيحل بنا .

لقد تمت مباغتتنا .

دودة الكتب حرامية

بدأت السيارة تفقد أعصابها فجأة و تتلوى يميناً و يساراً كأننا في معدة ثعبان !

وقعت السيجارة من فم السائق و اتسعت عيناه بشدة و هو يقبض بسائر قوته على المقود محاولاً السيطرة عليه، لا أعرف كيف تمكنت من التقاط تلك التفاصيل في تلك اللحظة المأساوية المرعبة .

خفق قلبي بشدة و تشبعت أكثر بخطورة الموقف حين صرخ الرجل :

- لقد انفجر الإطار !

لحظات عصيبة مرت، حتى تمكن الرجل من التوقف بالسيارة باقتدار مدهش .

خرج من السيارة و هو يردد :

- لن تمر سيارة من هنا قبل الغد، سأبحث عن أي مساعدة في الجوار .

حدوة الكتب حرامية

اختفى الرجل من أمامي خلف تكوين جبلي .

كانت لحظة سوداء تلك التي قررت فيها الركوب معه .

كم هو الاحتمال أن تستقل السيارة الخطأ، حين تمر من أمامك كل تلك السيارات ؟!

مرت الدقائق و لم يظهر، ماذا يفعل كل هذا الوقت ؟

ظللت أنتظره حتى فزعت من طول غيابه .

تفقدت الطريق الذي سلكه، فلم أجد له أثراً ، كأنه لم يكن هنا يوماً !

ناديت عليه بأعلى طبقات صوتي، فلم يتغير شيء .

عدت إلى السيارة المعطلة التي لا فائدة من وجودها حائراً، ماذا سأفعل الآن في هذا الفخ الشاسع !

ارتكنت على جانب السيارة أحاول استيعاب أزمتي الطازجة، انطفئت بهجتي كشمعة تحت المطر، هل علي

الآن أن أصدق يأسي الذي يخبرني أن حياتي المستقرة لن تعود .

كنت أعرف أن العالم أكثر خبثاً من أن يتركني حزيناً إلى الأبد !

مهلاً، أكاد ألمح وميضاً على مرمى البصر ، أهو سراب ؟!

ليس هناك اختيار ..

سلكت طريقي نحوه بآمال كبرى ،هل يريد الرب من خلال هذه المحنة أن يطهرني من الآثام و الخطايا التي تلوثت بها ، قبل أن أعود ؟

ليتني ألقي بأثقالي التي أوهنت عاتقي على الرمال .

ركزت نظري على الوميض و على النجاة و على دقة موقفي الحرج، فما أفكر فيه فلسفة لا تناسب الموقف .

دودة الكتب مراجعة

توغلت في الصحراء بلا وجهة محددة، كنت هائما على وجهي بلا هدف، هل هذا جنون ؟!

فليكن، لأنني أستحق العقاب، و لأنني أحتاج المعاناة و الألم كي تنضبط نفسي وتتغير.

باغتني الصوت :

(أين تذهب أيها المجنون، ستعلق في هذا التيه، لن تجد أحداً ينقذك و قد تموت)

بل اصمت أنت أيها الصوت، اخرس، لن أنساق خلفك بعد الآن ..

و حتى إن كان كلامك صحيحاً، فإلى أين سأذهب ؟

أنا محاصر كما ترى و ليس أمامي حلول أخرى !

كنت قد بدأت ألحظ آثار أقدام كثيرة حولي، يبدو أن البعض قد سبقني إلى هنا، كيف لم تُخْفِ الرياح كل هذه العلامات !

تضربني حرارة الشمس فأسأل : متى سأنهار .. بعد خطوات أم بعد أمتار أم أبعد ؟!

لا مشكلة، حتى و لو كنت سأموت، لم يعد لدي خيار، فذلك القدر الذي قادني إلى هنا يريد حتماً إصلاحي بهذا الابتلاء، هل تم إلقائي هنا لتنقية روحي من دنس الشيطان من خلال عذاباتي و تأملاتي ؟ أه من معاناتي !

تُري ماذا كان مصير من وصلوا مثلي إلى هنا، هل نجوا أم تاهوا، أم تراهم قد تساموا إلى السماء فصاروا تلك النجمات التي تلمع فوقنا ليلاً..؟!

بعد خطوات أخرى لمع الوميض مجدداً على المدى .

لا سبيل للتأكد سوى بالاقتراب .

صادفت كهفاً لم أكن ألحظه من بعيد، تطلعت إليه ثم تقدمت ناحيته لأتفحصه .

حوية الكتب طرامية

لم يكن له أي باب، فقط فتحة تعلوه، فكرت في الدخول من خلالها، لكني لا أعلم ما سأجده بالأسفل !

بالتقدم إلى الأمام ازداد إشعاع الضوء في عيني حتى غشي بصري و تحول اصفرار الصحراء بالتدريج إلى اللون الأبيض الناصع، و حين أدركت أنني أفقد الوعي بكل ما حولي، استسلمت .

***

حين فتحت عيني بصعوبة، كان كل ما حولي مظلماً إلا من ضوء بسيط يتسلل على استحياء، اعتصرت جمجمتي كي أركز أكثر و تساءلت بشكل خفي .. أين أنا ؟!

رفعت رأسي إلى الأعلى، كانت هناك فتحة علوية عالية تظهر من خلالها نجوم السماء، من الواضح أنها هي مصدر الضوء الخافت، هل انزلقت إلى الأسفل وقضي الأمر ؟ هل لبثت في إغمائتي وقت طويل ؟

حروحة الكتب حرامية

نهضت مرهقاً لأتفحص المكان، كنت في الكهف كما توقعت، الخبر المفجع أنه بالفعل بلا أبواب .

جلست مجدداً على تكوين صخري منبسط و فكرت أن أؤجل بحثي إلى الصباح، فحينها سيتسلل الضوء إلى المكان بأسره و سأرى بشكل أوضح .

شعرت بالعطش و بالهزال، حلقي جاف للغاية، لا أجد ريقاً لأبلعه و لا يبدو لي أن هناك مصدر للمياه من حولي، شككت في امتلاكي للقدرة على الصمود حتى انبثاق الضوء بعد ساعات .

لفحني هواء بارد من الأعلى و أنا أفكر في التسلق و الخروج من تلك الفتحة، لكنها كانت مرتفعة و بعيدة عني، و الكهف من الداخل كان أملسا، تعتريه تشققات متفرعة، هل سأموت هنا، لا بد أن يكون هناك مخرج !

حدقت بحذر في البقعة التي تحيطني خشية وجود ثعابين أو حشرات مؤذية، لكن أنواراً مبهرة غمرت الكهف فجأة كأن شمساً قد سطعت .

أغلقت عينيّ بشكل لا إرادي، و تراجعت إلى الخلف أحاول أن أتبين ما يحدث، حتى احتبست أنفاسي و اتسعت عيناي .

حاولت أن أتكلم لكن انبهاري غلبني و جمدني، احتضرت الكلمات على لساني و ماتت قبل أن تخرج إلى الحياة، رجفة سريعة مرت بساقيّ كتيار كهربي .

ارتجافة ترعرعت بعدها زهور و نباتات بألوان عديدة من حولي و تحول الكهف بالتدريج إلى نسخة من الفراديس السماوية التي كنت أتخيلها دائماً في لحظاتي التأملية المشرقة .

قبل أن أنبس ببنت شفة، لمحت ينبوع مياه عذبة بجواري، كنت قد نسيت الظمأ، لكني حين رأيته اغترفت منه بكفي و ارتويت كما لم أرتو من قبل، كان طعمه أصلياً خالياً من أية شوائب ممكنة .

بعدها اختفى ذلك الضوء تماماً، بدا أنه لم يعد موجوداً، فغادر جامعاً خلفه كل ما أضفاه من حسن و

نماء، النباتات و الينبوع و النور، انطفأ كل شيء من بعده تماماً، كأنه شعاع سطع لوهلة ثم اختفى خلف سحابة .

هل كل ما رأيته الآن هو محض هلوسة و أوهام ؟

هل أنا غارق في الهذيان ؟

لم أفهم ما حدث، لم أعد أقوى على التركيز و التحليل، الأمر برمته كأنه حلم .

سرى الخدر في أوصالي بعد ذلك الهدوء الذي عم، و تثاقلت جفوني مع سريان تيار بارد آخر، فافترشت الأرض الرملية متخذاً وضع الجنين و منزلقاً إلى نوم أكثر عمقاً، كأنه العدم .

حين استيقظت كان الصبح قد انبلج. تفقدت الكهف - الذي كنت أتصور أنه أوسع - بنظرات فاحصة، بعد أن عزز الضوء من وضوح التفاصيل التي كانت مختبئة في ظلام الليل .

تملكني اليأس و أنا أدور باحثاً عن طريقة للخروج كأني في قفص، كانت لحظات عصيبة تغلب عليها الحيرة و الاضطراب .

نبهتني معدتي عبر إحساس الجوع أنني لم آكل شيئاً يذكر منذ فترة طويلة، جلست على صخرة منهكاً، بعيداً عن شمس الظهيرة الحارقة، حتى خفت حرارتها مع مرور الوقت .

حينها هبت نسائم أكثر حناناً، فاستفقت قليلاً من حالة عجيبة بين الوعي و اللاوعي كانت قد استبدت بي و كأنني سكير في تلك الحانة التي كنت أمر بها .

ابتسمت ساخراً من حالي و رددت في نفسي أن تلك الحالة من السكر التي كنت أهابها، لا تقارن بسكري الآن، فأنا إن كنت قد نسيت في الحانة هويتي، فأنا هنا بكامل ذاكرتي و روحي المتعبة .

تفاجئنا الحياة أحياناً بأكثر مما نخاف منه، كأنها تخبرنا أن سقف توقعاتنا بشأن سوئها خفيض للغاية، و

أن أكثرنا تشاؤماً لا يزال في عرفها، متفائلا.

و حياتنا هي محض انعكاس لنا، تحترف اصطناع البراءة في أوقات فراغها، لكنها في أمور الشر، بارعة التخطيط، واسعة الحيلة .

من الجيد أنني ما زلت قادراً على السخرية .

تمالكت نفسي بصعوبة، و ضغطت على قدميّ و أنا أنهض و أرفع نظري نحو تلك الفتحة و أتأمل السماء الصافية ذات الزرقة، ثم سافرت بقلبي بعيداً في الكون ورغبت بشدة في أن أتطهر و أن أنجو، تمنيت ذلك لأنني ندمت على تحولي إلى نسخة أنانية لا تمثلني، نسخة مليئة بالشك و الطمع و التشوش .

أريد أن أشفى .

تمنيت أيضاً ألا يعود ذلك الشيطان مرة أخرى، أن يصمت للأبد و أن يكف عن وساوسه و ألاعيبه الماكرة .

كدت أستمر في استرسال أفكاري لكن شيئاً خطف انتباهي و جعلني أحدق فيه متعجباً .

رأيت خيطا رفيعا من الضوء يخرج من ثقب صغير بجانب إحدى الصخور الكبيرة في جانب الكهف، تحركت ناحيته ملهوفاً ثم تسمرت أمامه قليلاً و فكرت في تحريك الصخرة .

بكل ما أوتيت من قوة، قمت بإزاحتها، فظهر من خلفها منفذا للخروج !

لم أكن أصدق .. حشرت جسدي بداخله، و بالتدريج .. نجحت بصعوبة في العبور إلى الجانب الآخر .. كأني أخرج من رحم الكهف .. كأني أولد من جديد !

بمجرد أن وقفت على قدميّ حتى التقطت أنفاسي و هرولت بعيداً بكل ما أستطيع، غير مصدق أنني تحررت أخيراً من سجني الصخري العجيب .

لقد عدت إلى الحياة بمعجزة .

مشيت على مهل، و تلفتّ حولي بوهن فبدا لي أنني علقت في تيه قاتل .

لكن شيئاً في نفسي كان يخبرني أن الحكاية لم تنته بعد .

حين اقترب الليل من فرد أجنحته على السماء كوطواط عملاق، جاءتني قبلة الحياة على هيئة أضواء بعيدة .

(20)

لمحتها على المدى ..

حلقة نارية تضوي في قلب الصحراء. في البدء لم أفهم، شعرت و كأنني في فضاء فسيح، أتطلع فيه إلى مجرة مشتعلة .

اقتربت منها بخطوات مهتزة كأنني أنساب على الرمال التي أمست باردة. تبينت ما أنا مقبل عليه، هذا الحزام المضيء ما هو إلا مشاعل تلتف حول واحة صغيرة مليئة بأشجار و نخل كثير يكاد يلامس السماء .

تراقصت النيران في عيني بشكل منتظم و دوار شيطاني يعبث برأسي ليسحب من عقلي بساط سلطته على جسدي الذي غلبه الإعياء البالغ .

صوت كذلك الذي ينبعث من أصداف البحر يملأ أذني، حجاب لا يسمح لعينيّ بالرؤية، ضباب يغلف عقلي فلا أقوى على الإدراك، قاومت ضعفي و غيابي في غياهب

اللاوعي و تمكنت من فتح جفوني التي وقع عليها ثقل كوكب عملاق .

ست عيون كانت تتأملني و ملامح حيرى تتموه تفاصيلها في كل لحظة تمر :

- غريب !

هتف أحدهم، و أنا أعتدل لأحدق فيما حولي، ثلاثة رجال ببشرة سمراء مشربة بحمرة بسيطة، يرتدون رداءً مماثلاً في التطريز على اختلاف ألوان القماش .

عاونوني على النهوض، اصطحبوني إلى داخل واحتهم التي لم أعرف بوجودها قبل اليوم. كانت الواحة صغيرة، بضعة بيوت متجاورة من جريد النخل مزينة بأخشاب ملونة و مقطعة على هيئة أشكال مختلفة بعضها معلق في السقف الخارجي للبيوت التي كانت تطل على عين من المياه النقية العذبة تتوسط المكان بأسره .

أودعوني برفق في غرفة بإحدى البيوت المحدودة، خافتة الإضاءة، التي تستمد بصيص نورها من المشاعل المتقدة بالخارج .

على الأرض، قمت بالاستلقاء على ظهري لبرهة ثم شربت من المياه الباردة التي وضعوها أمامي حتى ارتويت .

فوق دكة خشبية جلست ألتقط أنفاسي و أسترجع سكينتي. جو الغرفة مشبع برائحة بخور نفاذة، لاحظت وعاءً عميقا يقبع بالقرب مني، حاولت تبين ما يحتويه الوعاء، كان به بعضاً من التمور التي تذوقت طعمها في البداية بحذر، فوجدتها لذيذة، سكرية الطعم كالعسل المصفى، أكلت منها حتي شبعت و استعدت صفاء ذهني بالتدريج .

عينان مكحلتان لفتاة صغيرة سمراء طلتا من الباب بفضول وضاح .

اقتربت مني حذرة، كأنها تقبل على كائن فضائي تحطم طبقه الطائر بغتة بالقرب من منزلها. لكن صوتاً قريباً قد ناداها باسمها لتلوذ بالفرار كقطة تعرف أنها مخطئة .

تناهى إلى مسامعي صوت خطوات تقترب فعرفت أن أحدهم في طريقه إلي، بالفعل دلف إلى الغرفة رجل مبتسم طلب مني أن أرافقه إلى بيت آخر .

مشينا مسافة قليلة حتى وصلنا إلى بيت أكثر زينة واتساعا فتوقفنا أمامه، تركني الرجل بصحبة رجل آخر كان يقف أمام البيت، و عاد بعد قليل ليدعوني إلى الدخول .

حين عبرت الباب الخشبي، تأملت الرجل الجالس في وسط الغرفة، كان أكبر سناً ممن قابلت، يبدو في الستينات من عمره، رجل حسن الوجه، سواد عينيه شديد وتغزو شعره الأسود شعيرات بيضاء لامعة، كان يرتدي ذات الرداء المطرز وكان لونه كموج البحر .

العطور نفاذة أكثر في هذا البيت .

جلست، فسألني الرجل بصوت رصين :

- من أين أتيت أيها الضيف ؟

- من المدينة .

- و كيف وصلت إلى هنا .

- لا أعلم يا سيدي إن كنت ستصدقني .

أجابني بصوت مفعم بالهدوء و بابتسامة صافية :

- سأحقق في كلامك بعد الحكي، فلي عقل قادر على التمييز ، أما إن كنت لا ترغب في الكلام، فلك يا بني حق الضيافة حتى تغادرنا .

- لقد انفجر إطار السيارة التي كنت أستقلها، تجولت في الأنحاء بحثاً عن مساعدة لكني تهت في الصحراء الشاسعة .

- لقد وجدناك مغشياً عليك يا بني .

- لقد كنت حبيساً بداخل كهف و بلا أي مدد .

- من حسن قدرك أن خطواتك قادتك إلى هنا، لكنت في عالم آخر الآن إن لم تصل إلينا .

كان محقاً، أطرقت رأسي بعض الوقت، ثم تأملت الغرفة مرة أخرى :

- هل لي أن أطرح سؤالاً ؟.

رد مبتسماً :

- أصغي إليك .

قلت متردداً :

- لماذا تعيشون هنا .. لماذا لا تنتقلون للعيش في المدينة ؟

رد بعفوية واضحة و صوت صادق :

- و هل نترك الواحة الطيبة و الطبيعة الهادئة لنخرج لذلك الصخب العابث بالخارج، إن علاقتنا الروحية بهذه الأرض أكبر من أي إغراءات مادية .

حقيقة ارتحت لهذا الرجل، شعرت بحنوه و بأبويته و باتزانه رغم أنني لم أقابله سوى منذ بضع دقائق، أطرقت رأسي و فكرت قليلاً، ما المانع في أن أحكي له كل ما دار معي، رجل مثله قد يكون له نظرة ثاقبة أو رؤية مختلفة للأمور، وأنا بحاجة للبوح .

للأمانة، استمع الرجل لحكايتي باهتمام .

كان يتعجب في بعض المواضع و تتسع عيناه، لم يقاطعني أو يتفوه بكلمة واحدة حتى انتهيت، حينها فقط عاد ليتكلم و يفصح :

- حكاية عجيبة .

- نعم، فما جرى لم يكن ليخطر لي على بال .

حرك سبابته نحوي بحسم :

- لكني أرى فيها ما لم تر .

سألته مستفهماً :

- ماذا تعني يا سيدي ؟

- أعني أنك لم تفهم بعد ..

سألته بفضول :

- لم أفهم ماذا ؟

- الحقيقة الغائبة عنك .

- أية حقيقة ؟!

دقق في عيني بنظرة ثاقبة :

- هل أنت متأكد من أن الشيطان قد ظل بداخلك بعد الخروج من المنزل ؟

أصابتني صدمة من سؤاله :

- بالتأكيد !

دقق في عيني و ابتسامة خفيفة ترتسم على ملامحه :

- ما يدريك .. لعل ذلك الشيطان لا يتلبس سوى ساكني المنزل و حسب .

حاولت لدقيقة أن أستوعب ما يطرحه على مسامعي ثم سألته متعجباً :

- إن كان ما تقوله صحيحاً، فما كل هذا الذي سمعته منذ أن غادرت ؟

- لماذا لا يكون صوت نفسك ؟

رددت مندهشاً :

- صوت نفسي ؟!

- نعم .. فهي وسواسك الأكبر و الأكثر تأثيراً عليك من أي شيطان !

كنت مذهولاً من هذه الزاوية التي نظر منها إلى الأمور، لم أكن أتخيلها، هل حقاً كل ما انتابني من وساوس لم يكن إلا أفكارا أنتجها عقلي و ذلك الشيطان هو مجرد وهم .

- لماذا تعتقد هذا ؟!

اتسعت ابتسامته الخفيفة أكثر و هو يرد ببساطة :

- فكر قليلاً .

- هل تقول أنني كنت أعاني من ... ؟

- تخيلات أفرزها تشبعك بفكرة سكنى ذلك الشيطان لروحك .

كنت أستمع بكل اهتمام، فواصل :

- و إن كان يسكنك حقاً فأين ذهب صوته ؟

أجبت عليه بسؤال :

- و ماذا عن ذلك الضوء الذي غمرني في الكهف و ذلك الينبوع العذب ؟

هز كتفيه و لم يرد و إنما أشار بسبابته نحو السماء، فصرحت له بكل صدق :

- لن أخدعك، فأنا لا أستطيع التصديق أنه غادرني منذ خرجت من ذلك المنزل .

- لا بأس في أن تخدعني، المهم ألا تخدع نفسك، وعليك أن تختار في النهاية بين مرارة الحقيقة أو حلاوة الارتياح بالوهم .

صمتُّ مفكراً بعمق، فتابع :

ستبيت بيننا الليلة يا بني، و إن كنت تريد المكوث فأنت مرحب بك، أما إذا أردت المغادرة في الصباح فسأرسل معك من يصطحبك إلى حدود المدينة .

***

أطلقت الشمس إِشعتها على الواحة لتجعل تفاصيلها جلية و زاهية، الألوان كانت مبهجة و صوت الطيور كان عذباً، تناثر بعض السكان حول عين الماء يملئون بها جرارهم مبتسمين .

الحياة في أحضان الطبيعة أجمل .

دفعني المشهد لأن أقرر المكوث إلى نهاية اليوم، فما لمسته من سكينة في روحي هنا لم أختبره في أي مكان آخر .

وقعت عيناي على تلك الفتاة السمراء الصغيرة التي كانت تتلصص علي، قطفت وردة من شجرة قريبة، ثم خطوت ناحيتها و قدمتها إليها .. ابتسمت من قلبي حين التقطتها من يدي بسعادة و فرت مسرعة .

كان نهاراً هادئاً، لم يبخل أحد في إمدادي بالطعام و الشراب، أهل الواحة هنا طيبون كأغلب أهالي الواحات، لأن البساطة ترتبط بالطيبة .

ودعت الرجل حسن الطلعة قبل أن أغادر ، فصافحني مبتسماً و طلب مني أن أعد لزيارتهم يوماً :

- أما بشأن ما يحيرك، فإن السماء التي أخرجتك من الكهف، هي من ستريح قلبك بعلامة واضحة .

أومأت بالموافقة فدعا بعدها أحد الرجال لاصطحابي إلى خارج الواحة مرة أخرى، ومن خلال طرق يعرفها جيداً، أوصلني إلى الطريق الأسفلتي و ظل معي حتى التقطتني سيارة مارة .

(21)

توجهت إلى ذلك الموتيل الذي نزلت فيه مع زوجتي من قبل، مرهقاً .

و هناك ..

قمت بحلاقة ذقني فعاد إلي وجهي الطفولي واستحممت منتعشاً .

اخترت من دولابي ملابسا للنوم وارتديتها .

ألقيت بجسدي على السرير الوثير و نمت بعمق حتى مساء اليوم التالي.

عرفت أن (سيلين) قد سافرت إلى أحد أقاربها وأنها أوصت والدها ألا يخبرني بمكانها، حاولت مراراً الوصول إليها لكني لم أصل .

لم يكن بيدي إلا الانتظار .. الذي طال .

***

أصابتني رغبة عارمة في العودة إلى ذلك المنزل المسكون و فحص القبو.

أردت أن أتأكد إن كان هناك شيطان من الأساس .

لقد نجح رجل الواحة في زعزعة اعتقادي .

شككت أن يكون الأمر برمته ليس حقيقياً، و أن تكون الأخبار التي تتحدث عن غرابة المنزل هي محض إشاعات تجارية كانت تهدف لبخس ثمنه.

كما أنني لم أر أي علامات ترشدني إلى الحقيقة .

هل لدي الشجاعة لفعل ذلك ؟

هل ما أعانيه من وحدة و إحباط و شوق إلى (سيلين) هو ما يدفعني لذلك التهور.

تملكتني الفكرة تماماً، و لم يسعني سوى التوجه إلى قبو المنزل و ليكن ما يكون .

على باب المنزل الصامت الذي ينتظر الإزالة في أي وقت، توقفت في الظلام لألتقط أنفاسي المتهدجة من بذلي لمجهودات غير مسبوقة، تراجعت إلى الخلف بضع خطوات و من خلال كتفي رميت بكامل ثقلي على الباب حتى انفتح، مشيت حتى الباب الخشبي الأرضي، فتحته و نزلت إلى الأسفل كأنني أنتقل إلى عالم آخر .

حدقت في كل أرجاء القبو الذي تتسرب إليه إضاءة خافتة .

و انتظرت ..

لا شيء .. صمت مطلق !

صرخت :

- أين أنت .. لماذا لا تحدثني .. أنا هنا؟ !

لا جواب .. !

(22)

هممت بارتقاء الدرج، لكن صوت فرقعة خرق أذني .

التفت على الفور، كان هناك ذلك الدخان يتجسد أمامي كأول مرة رأيته فيها، غير واضح أو محدد.

ارتفع صوته المقبض الذي أعرفه جيداً :

- لم أتوقع عودتك !

ملأني الخوف و الرهبة و حاولت السيطرة على رعشة في قدمي :

- أنت حقيقي أليس كذلك ؟

- هل وصلت إلى تلك المرحلة من عدم التمييز، يا لك من جاهل أعمي !

- ألم تغادر المنزل قط ؟

ارتفعت صوت قهقهة تردد صداها من كل الجدران حولي، فعاودت السؤال بإصرار :

- أجبني !

- لن أرد على سخافات بشرية .

- حسناً أعترف بأنني سخيف، لكني أحتاج بشدة إلى الإجابة .

- وصف الأمور الواضحة هو نوع من الخبل، لن أضيع وقتي مع غريب مثلك .

قالها و اختفى الدخان أمام عيني كما ظهر و عاد للقبو هدوؤه المستفز، فوجدتني أصرخ بانفعال و يأس :

- أجبني أيها الشيطان، هل كنت أنت ؟

***

بعد بضعة شهور ..

ظهرت (سيلين) .

وصلتني الأخبار بأنها عادت، و تأكدت من أنها في مطعم والدها .

في ذلك اليوم المنتظر، كنت بكامل أناقتي وأنا أستعد للخروج لمقابلتها، و شعرت أنني أفضل بعد بضع بخات من العطر .

توجهت إلى هناك سعيداً، و استقبلتني نفحات هوائية لطيفة و باردة .

كنت أحب الراحة النفسية التي تغمرني عند زيارتي لهذا المكان الرائع، و أحب أفرع النور التي تتخلله و أحب أناقته وهدوءه .. شعرت أنني منفتح على العالم و بأنني أريد أن أحتضن الطبيعة ممتناً .

دفعت الباب الأزرق، و لمحتها ..

كنت أفتقد عينيها البنيتين، وأتوق بشدة إلى حرارة حضنها، إلى الالتحام معها كزوجين يواجهان الحياة

كشخص واحد .

كانت تحمل في يديها طفلة رضيعة لا ريب أنها تخص أحد أقاربها .

قمت بتحية السيد (أندرو) واقتربت منها مسيطراً على مشاعري :

- عودة سالمة .

- أشكرك .

فكرت في تلطيف الحوار، فسألتها :

- من هذه الطفلة الجميلة ؟

نظرت إلى عيني بابتسامة خفيفة و لم ترد .

أمسكت بيديها و رجوتها برغبة حقيقية :

- سيلين .. لقد أخطأت .. أطلب فقط فرصة ثانية .. عليك أن تسامحيني.

- و لماذا أسامحك ؟

- لأنني تغيرت، تلقيت درساً و استوعبته جيداً، سنستكمل حياتنا على نحو أفضل، سنحصل على منزل آخر و سأسمح لك بالغناء .. !

قالت ببطء :

- للأسف ..

ثم أكملت :

- مضطرة أن أسامحك .

- لماذا ؟!

قربت الطفلة مني و نفذت بنظراتها إلى أعماقي كي تراقب ردة فعلي و هي تصرح بالقنبلة المدوية :

- ألا تريد أن تعرف اسم ابنتك ؟!

اتسعت عيناي ذهولاً و أنا أسألها غير مصدق :

- ماذا .. من ؟!

- نعم .. ابنتك .. قضيت شهور الحمل بعيداً عن هنا .. و عدت بعد الولادة !

تطلعت إلى ملامح الطفلة الصغيرة، أصابع يديها، فمها، عينيها و انتابتني موجات جارفة من المشاعر ..

كنت أتحدث دائماً عن مدى صحة الزج بالأبناء في هذا العالم القاسي، كنت أشفق عليهم من المعاناة التي سيقابلونها، و أخاف أن أِشعر بالذنب حين أنجب طفلاً ويعاني مثلي في هذه الحياة .

الغريب أن شيئاً تصاعد بداخلي بمجرد أن وقعت عيناي عليها، إحساساً لم أختبره من قبل اندلع في سائري، هل هو السعادة، هل الغضب، هل الانبهار، هل هو نوعاً من عدم التصديق ؟

لا أدري، لن يفيد التصنيف، فكل ما ينبغي فعله الآن أن أقبل بالأمر الواقع و أن أجعل هذه الابنة أفضل مني وأسعد مني و أكثر قوة من روحي الهشة .

لقد أضاءت لي تلك الصغيرة، بُعداً آخر لم أكن أراه، قدراً من الاستمرار يضمن لي بعضاً من الخلود بعد الرحيل .

تملكني حينها شعور بالقوة، فقلت في نفسي : لقد حان الوقت لكي نسخر من كل ما تفعله بنا هذه الحياة و تظن أنها تهزمنا به، لا بد أن نفاجئها بكبرياء مدهش غير متوقع، لا يمكنها من أي لذة انتصار على ذواتنا الحرة.

لقد حان الوقت لأن نكون جميعاً بتلك الروح المتحدية، غير المستسلمة، روح متعالية على مرارة الحزن و قادرة على اختلاس البهجة من بين براثن المعاناة، ذلك لأن لحظات الفرح التي نسرقها من هذه الحياة هي انتصاراتنا الحقيقية !

قاطعت (سيلين) أفكاري و تدفق مشاعري :

- لم تجبني .. هل تريد أن تعرف اسمها ؟؟!

تأملت قرطها اللامع وأنا أرد عليها بابتسامة واسعة :

- أنا متلهف لذلك .

- إيفا، سميتها إيفا1 لعلها تعثر يوماً على آدم الخاص بها .

ابتسمت، تألقت عيناي، وددت حينها لو أنه بإمكاني أن أحيا في عالم لا يوجد به سوى أحبتي فقط .

لمحت كتاباً بجوارها، فسألتها :

- ما هذا الكتاب ؟

أجابتني و هي تناولني إياه :

- كتاب كنت أقرأه مؤخراً لتمضية الوقت .

قلبت صفحاته بفضول فوقعت عيناي على إحدى المقولات المنسوبة لكاتب يدعى (جبران) :

(و قال الرب أحبوا أعداءكم، فأطعته و أحببت ذاتي)

اتسعت عيناي اندهاشاً .. ثم أعدت الكتاب إلى (سيلين) التي لم تكن تفهم سبب اندهاشي ، لكني ابتسمت حين أدركت أنها إشارة السماء !

تصاعدت تلك المعزوفة لأرمسترونغ في ذهني بالتدريج فازدادت ابتسامتي.

كنا نراقب البحيرة لحظتها، و كانت أشعة الشمس الذهبية تتراقص أمامنا على صفحة المياه اللامعة، براقة .. مبتهجة.

(النهاية)

للتواصل مع الكاتب عبر موقع فيس بوك :

/www.facebook.com/AhmedRabieWritings

للتواصل مع السيدة إيفا عبر موقع فيس بوك :

/https://www.facebook.com/missevaadam

---

1) إيفا: اسم علم مؤنث يعني حواء.

ن للنشر والتوزيع
info@noonpublishing.net
02-33856037 2-01127772007